جماعة اخوان الصفا

للسيد عبد اللطيف الطيباوي

جماعة اخوان الصفا (1)

للسيد عبد اللطيف الطيباوي

الفصل الاول

نظرة عامة في الفكر الاسلامي

يبتدىء تاريخ العرب الفكري بابتداء العصر القرآني ، ففي القرآن رأى الثقات من الصحابة كل ما يحتاج اليهِ المؤمن من معرفة . ولعل كثيراً من مؤرخي العرب ونقاد الفرنجة من المستشرقين بنوا على هذا الرأي حديث محو علوم الفرس وحرق مكتبة الاسكندرية بامر من عمر بن الخطاب [مقدمة ابن خلدون ، ٣٣] بيد ان القرآن نفسه مشحون بالآيات الحاضة على استعمال العقل والبصيرة بالنظر في عبر التاريخ وعجائب المخلوقات . ويستلفت نظرنا ان «العلم» هو احدى الصفات التي يتصف بها الله القرآن . وهنالك احاديث تعزى الى النبي مؤداها مناصرة الفكر حتى قيل انه

---

(1) وهي الرسالة النفيسة التي نالت جائزة « هورد بلس » الاولى في مباراة المباحث العلمية بالجامعة الاميركية في بيروت لسنة ١٩٢٨—١٩٢٩ لصاحبها عبداللطيف افندي الطيباوي خريج كلية الاداب والعلوم بالجامعة . نبدأ الان بنشرها املاً ان نطبع قائمة المصادر التي اعتمد عليها صاحب الرسالة في فرصة اخرى .

قال ان اول ما خلق الله هو العقل وعلى هذا فنحن نجد الحكمة السقراطية « اعرف نفسك ! » مبثوثة في الاحاديث النبوية حتى انها نسبت الى علي ابن ابي طالب الذي يزعم كثيرون انه اول فيلسوف في الاسلام . وقد جاء في الحديث « الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها » وروي عن علي انه اوصى المؤمنين بالحكمة خيراً واوصاهم بالحرص عليها ولو جاءت من الكافرين

غير ان هذا الشغف بالعلم لم يكن بادىء بدء الا رغبة في فهم القرآن وحرصاً على فقه الحديث لا محبة في استقصاء غوامض الكون ولا جرياً وراء فلسفة ما وراء الكون . وغير خافٍ ان المدنية ليست تراثاً خاصاً بامة دون امة فما المدنية الا نتاج العقل البشري يشترك في حشدها وتصريفها جميع الناس في كل عصر ومصر . هذه شرائع العمران التي لا مناص من الرضوخ لحكمها فما من امة درجت على هذا السيار وبقيت منعزلة عن العالم لا تأخذ عنه ولا ياخذ عنها . وقد كان يمكن العرب في شبه جزيرتهم ان يظلوا ابداً بمعزل عن الامم لو لم تكن بلادهم طريق التجارة ومطمح انظار الامم الفاتحة منذ القرون الخوالي . وقد كان يمكن المدنية الجاهلية ان تتمركز وتتكون دون ان تستعين بغيرها لو لم يقم الاسلام . حقاً قد كان يمكن العرب ان يكونوا مدنية — لا نقول انها بتمامها عربية بل جلها عربي — لو كان في امكانهم الانزواء والحيلولة دون العناصر الاجنبية من التسرب اليهم في عصورهم الاولى ايام كانوا يتخبطون في دياجير الظلمة والبداوة .

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن مستطاعاً :

فما عتمت الدعوة الاسلامية ان حملت على الامبراطوريتين القديمتين فدكت عروشهما واقامت بهمة قوادها البواسل حكومات محلية في مصر وسوريا والعراق . وهنالك قيض الله لمبادىء القرآن ولتعاليم النبي مدنيات الفرس (وبالتالي الهنود) واليونان والنصارى . وما كانت اثار التحاك الذي لم يكن منه بد لتبدو حال استتباب الامر للمسلمين في تلك الاقطار المفتتحة وذلك لاشتغال القادة وسواد المؤمنين

بالفتوح وادارة البلدان من جهة ولحداثة عهدهم في عالم الفكر من الجهة الأخرى .

الا ان عوامل الانتقاض والفتنة قد اخذت تعمل في ركن الدولة الرسولية دولة الخلفاء الراشدين ولما تضاءلت بعد اصداء الاصوات المحمدية المنادية بالوئام في سبيل الله ونبذ العصبيات الجاهلية . ولكن هي الطبيعة الانسانية — وهو الانسان ! فامية التي دانت للاسلام راغمة ظلت تحين الفرص الرجوع الى سلطتها الجاهلية حتى كان عهد الفتنة ومقتل عثمان الذي آل الى انتخاب علي للخلافة . وهنا هبَّ معاوية الداهية حاكم سوريا الجبار يناضل علياً متهما اياه بالدس على عثمان والكيد له . وما هو في الحقيقة الا طامع بالساطة متطاول لسدة الخلافة

واخيراً تمكن بدهائه وحكمته من القضاء على علي في صفين لخلق الشقاق والاضطراب في جيشه على اثر التحكيم فقامت الخوارج وبدأت الشيعة . وسرعان ما نشطت هاتان الفرقتان بعد موت علي بمؤازرة الموالي من الفرس الى السعي على تقويض ملك بني امية . وقد كللت مساعيهما بالنجاح بعد تسعين عاماً من انتصار معاوية في صفين — فشادت على اعناق جيوش الخراسانيين دولة بني العباس

في عهد بني امية بلغت الفتوحات العربية الاسلامية اقصاها — وصارت اللغة العربية لغة السياسة والعلم : على ان المنصرفين للدرس والعلم كانوا من غير العرب وكثير من معلمي المدارس في سوريا كانوا من النصارى . واهل الثقافة والفلسفة في البصرة والكوفة كانوا من الفرس والمجوس والنصارى واليهود .

الا انه بعد ان تأثل الملك وازداد رخاء الدولة ايام بني العباس كثر اختلاط العرب في عالم الفكر والدين مع غيرهم من الامم . وفي بغداد حاضرة ملكهم وجدت العلوم مركزاً لم يكن يضاهيه في عالم ذلك العصر سوى القسطنطينية . وقد كان هذا الاختلاط مع المدنيات اليونانية والنصرانية والفارسية والهندية مدعاة لخلق علوم جديدة ازاء العلوم اللغوية والقرآنية . واعتبر هذا بما حدث لليهود بعد احتكاكهم بمدنية اليونان في مدرسة الاسكندرية فقد اضطر هؤلاء الى فهم آداب اليونان

والالتجاء الى منطقهم ومحاوراتهم لاثبات صحة الديانة اليهودية . فكثر عندهم التأويل والتصرف في معاني التوراة . فكنت ترى آراء افلاطونية اوسقراطية تستعمل لتفسير آيات التوراة او الدفاع عن مبدأ ما — كل ذلك بأساوب جدلي منطقي اشتهر به اليونان دون سواهم . واعتبر ذلك ايضاً بما كان في النصرانية بعد احتكاكها بفلاسفة الثمانمئة سنة التي تلت موت ارسطو . فقد قام المفسرون والشارحون والمأولون يطبقون منطق ارسطو ومُثُل افلاطون ومعرفة سقراط على تعاليم المسيح البسيطة .

وهكذا فالمسلمون بعد اصطدامهم بتلك المدنيات تحتم عليهم ان يفسروا دينهم ليطابق هذه الحالات الجديدة . وان يدافعوا عنه بالسلاح الذي يهاجمه به اعداؤه : سلاح المنطق والجدل وعلم الكلام . وهذا مما شجع الترجمة والنقل لابل هذا هو سببها وباعثها اذ لم يمض على هذه الحركة الا القليل حتى ظهرت طلائع المنطق والرأي والقياس والاجماع في الفقه واللاهوت بتأثير هذه المستحدثات

ولحسن حظ المسلمين فان الخلافات الدينية التي حمي وطيسها ما بين الفرق النصرانية من النساطرة واليعاقبة كانت قد اقتضت ترجمة كثير من كتب اليونان الى السريانية . ففي مدارس حرّان والرها وغيرهما ترعرعت هذه الحركات التي استخدمها المسلمون بدورهم لاغراضهم الخاصة .

بهذه الحركات لا بغيرها يبتدىء تاريخ الشغف الحقيقي بالفلسفة في الاسلام . اذ بعدها بقليل اخذ الناس يبحثون في حرية الارادة والأزل ووحدانية الله وصفاته وعلاقته بالانسان وبالعالم . فشقت هذه الابحاث طريقاً عاماً للفلسفة تفرّع الى عدة مجارٍ اهمها : المعتزلة والاشعرية والمرجئة والتصوُّف ومدرسة الفلاسفة الارسطوطاليين . وقد تأثرت الفرقتان اللتان اخذتا بالنمو تحت ظلال الاسلام منذ البدء وهما الشيعة والخوارج كما تأثر الزهد بالعوامل الاجنبية فاضحى تصوُّفاً شمولياً باطنياً . فنشأ من الشيعة فرق الاسماعيلية والباطنية والقرامطة والدروز وتكون عند الخوارج نظريات سياسية دينية جديرة بالدرس اما شعرها المشبع بالروح الدينية الحاسة فمن مميزاتها

الخاصة إزاء هذه الجماعات قامت فئات من الموالي عرفت بالشعوبية غايتها مساواة الموالي بالعرب فاستعملت لهذه الواسطة تعداد «مثالب» العرب ٠

ومهما يكن من شيء فالثقافة التي انتشرت في الاقطار المفتوحة كانت في روحها يونانية ٠ وهذه الثقافة لم تصل الى العرب دفعة واحدة اذ انه قد ترجمت للامير الاموي خالد بن يزيد مؤلفات في الكيمياء عن القبطية واليونانية وانه وضع بنفسه ثلاث مقالات في هذا الموضوع ٠ وقد كان المنصور اول خلفاء بني العباس خير من ناصر هذه النهضة من الخلفاء الاول ففي زمنه ترجم ابن المقفع مقالات في الطب عن البهلاوية ٠ الا ان المأمون كان اعظم من ناصر هذه الحركة وعصره هو العهد الذهبي لها ٠ وكان هو نفسه محبا للعلم والفلسفة فنشط المترجمون الى نقل علوم الهندسة والفلك والموسيقى ٠ واقام الخليفة مجمعاً للدرس عُرف «ببيت الحكمة» كان فيه مرصد لدرس الفلك ٠ ومن اشهر تراجمة عهده بنو موسى من المسلمين وقسطا بن لوقا وحنين بن اسحق من النصارى وثابت بن قرة من الصابئة

وهكذا في فترة قصيرة جداً نضجت دراسة اللاهوت والشريعة والطب والفلسفة والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية وتلا ذلك دور انتشرت فيه ثقافة عامة ورخاء اجتماعي ٠ وهذه الظروف ساعدت فرقة المعتزلة على نشر افكارها الحرة فنازعتها الاكثرية الساحقة من فرقة السنة ٠ وكان من اهم ما حاربت المعتزلة في سبيله ادخال رأي ارسطو في الله كقانون او ناموس بدلاً من ارادة وهو الرأي الاسلامي ٠ اما نقطة النزاع فكانت بين العقل من جهة والوحي والايمان من الجهة الاخرى ٠ واظهر مظاهر هذا النزاع هو قضية خلق القرآن التي بلغت اقصى حد من الاهمية والشدة ايام المأمون الذي ناصر المعتزلة فجعلها دين البلاط واسس المحنة المعروفة في تاريخ النصرانية بديوان التفتيش وارغم القضاة والفقهاء على الاعتراف برأي المعتزلة في القرآن ٠

ولكن الرأي الاسلامي العام ظل معادياً للمعتزلة وكان اشهر خصومها الامام

احمد بن حنبل . ومع ذلك فقد ظلت تتمتع بالسلطات الى ان اعرض عنها الواثق عندما تولى عرش الخلافة ثم اعان هرطقتها المتوكل (سنة ٨٤٧ م)

وكان من جراء ذلك ان ذهبت مساعي المعتزلة ادراج الرياح : فعبثاً حاولت ادخال رأي ارسطو في الله الى الاسلام وعبثاً سعت في تجريد الاسلام من الفكرة الناسوتية Anthropomorphism التي ترمي الى تزويد الله بشيء من صفات الانسان .

وما عتم ان قام على انقاض هذه الجماعة وعلى انقاض سلاحها المنطقي الجدلي فلسفة جديدة هي مدرسة علم الكلام . فالخليفة المتوكل الذي توصل الى عرش الخلافة بمساعدة الحرس البريتوري من الاتراك لم يجد خيراً من مناصرة عقائد الاكثرية فقام يضطهد مناصري حرية الفكر ويصادر اموالهم . واحس الناس بحاجة ماسة الى (تسوية) توفق بين فكرة الحنابلة الناسوتية المتطرفة وفكرة المعتزلة المغالية في تقدير العقل . وكان رجلَ هذه الساعة الفذ ابو الحسن الاشعري الذي كان صديقاً حمياً للاعتزال حتى بلغ الاربعين من عمره فاختلف مع استاذه الجبائي (توفي ٩١٥ م) رئيس حزب المعتزلة في عهده على قضية لاهوتية . فاعتزل عنه واعلن اخلاصه للسنة في جامع البصرة وصار بدوره موسس علم الكلام . ولم يكن في سعيه للتسوية ما يبن الحزبين المتخاصمين ختمٌ للنزاع فان كثيرين من اهل السنة لم ينظروا الى تسويته هذه الا كما كانوا ينظرون الى افكار المعتزلة . وظل علم الكلام ينتظر حجة الاسلام الامام الغزالي حتى اعطاه شكله النهائي وثبت دعائمه في نظام الفلسفة الدينية الاسلامية

ها قد اجملنا القول في تعداد الفرق الفلسفية وآن لنا ان نقول كلمة عامة في الافكار الشائعة والعناصر التي اشتركت في تركيبها وتكييفها . فباتصال المعتزلة مع المتكلمين اقلع المسلمون عن الاعتراف بحرية الانسان وعن الرأي القائل بان لا فرق بين صفات الله ووحدانيته (ذاته) وظهرت الابحاث في علاقة الله بالانسان والعالم وكثرت التفاسير الصوفية الباطنية وشاع تطبيق (الكلمة) (Logos) في التفاسير وان الباحث ليعجب حقاً كيف اهملوا البحث في العلل الكونية واكتفوا بارجاعها الى

الفصل الثاني

بحث في اشتقاق الاسم وزمان الجماعة ومكانها

ليست هذه اللفظة المزدوجة (اخوان الصفا) بالجديدة في الاداب العربية ولا هي بالقليلة الورود فيها . بيد انها لم ترد هكذا في القران . وجاءت لفظة الصفا فقط ولكن كاسم علم في سورة البقرة (آية ١٥٣) « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما . » ويظهر ان رسائل اخوان الصفا ترجع اصل هذه اللفظة بمعناها الخاص الى ما بعد موت النبي بقليل فقد حزن عليه اصحابه لانه « قد تفرق شملهم وطمع فيهم عدوهم » ولا سيما بعد مقتل اصحابه المساعدين له في اقامة الناموس مثل « صديقه وفاروقه وذي النورين» . فصار ذلك سبباً « لاختفاء اخوان الصفا وانقطاع دولة خلان الوفا[1] »

---

(١) رسائل اخوان الصفا — الجزء الرابع ص ٢٧٨

ووردت هذه اللفظة في الشعر واعل اقدم ما يعرف عن ذلك قول « اوس لطفيل بن مالك في يوم السوبان » الوارد في نقائض جرير والفرزدق :

امرك ما آسي طفيل بن مالك بني عامر اذ ثابت الخيل تدّعي
وودع اخوان الصفاء بقُرزُل يمر كمريخ الوليد المُقَزَّع(٢)

نعود فنتساءل ولكن لم آثر هؤلاء القوم ان يطلقوا على انفسهم هذا الاسم دون سواه ؟ في معتقدنا ان الجماعة لم تتم الا كرد فعل ولم تنشأ دعوتها الا عن شعور بالحاجة اليها — واي وقت ادعى لقيام امثال هؤلاء الفضلاء من وقت توترت فيه الصلة المدنية ما بين الفرد والدولة ناهيك بالجماعة فذهب عهد الاخوة ومضى دور الصداقة فما كنت ترى الا اضطراباً وقلقاً . وعلينا ان ندعم قولنا بشواهد من اصول ذلك العصر فنقول :

قال ابو حيان التوحيدي(٣) صديق الاخوان و احد افراد جماعتهم على رأي البعض «سمع مني في وقت بمدينة السلام كلام في الصداقة والعشرة والمؤاخاة والالفة وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة والجود والتكرم مما قد ارتفع رسمه من بين الناس وعفا اثره عند العام والخاص . » وقال ابو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر البليغ « اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت واصلح قلوب الناس فقد فسدت(٤) » . وقد وجدنا ان التوحيدي يسعى بجهد لنفي الشعور بالصداقة الحقة عن ملوك عصره ومن تبعهم من القواد والخدم ونفيها ايضاً عن اصحاب الاملاك والتجار . ولامر ما رجحها لرجال الدين . اما اهل العلم « فانهم اذا خلوا من التنافس والتحاسد والتماري والتماحك فربما صحت لهم الصداقة وظهر منهم الوفاء وذلك قليل . . »(٥)

---

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٩٣٣ س ٩
(٣) رسالتان — رسالة في الصداقة والصديق ص ٢
(٤) منه ايضاً ص ٢ (٥) منه ايضاً ص ٥

وكتبت هذه الرسالة « الصداقة والصديق » في سنة ٤٠١ه كما جاء في (ص ٦) ويقول التوحيدي انه كتبها «وفي النفس من الحرق والاسف والحسرة ..» مافيها . هذا وقد جاء في الرسائل نفسها[٦] قوله « وقد ترى ايها الاخ البار الرحيم ايدك الله واياناً بروح منه انه قد تناهت دولة اهل الشر وظهرت قوتهم وكثرت افعالهم في العالم في هذا الزمان وليس بعد التناهي في الزيادة الا الانحطاط والنقصان »

ومما يوضح هذه الحالة ما نقله ابو حيان عن النوشنجاني احد افراد جماعة فلسفية في بغداد وذلك في الصداقة وكان القوم على ما يظهر يبحثون فيها قال «انما الصداقة لغة . وهي ام هذه المُتَآكِبة . . صحة الظاهر بالموافقة وسلامة الباطن من المخالفة واستقرارها على حد المواصلة بالمناصفة والمساعدة والايثار مع الاهتمام[٧] » وكيف ذلك؟ « ان تعمد نحو السعادة — السعادة الكبرى او الاتصال بالله — بتطهير الاخلاق وتجريد العادة واصلاح السيرة . . . . حتى تلقط المشتري والزهرة بيدك وتصير فوقهما بحقيقتك[٨] » فالكتابة في هذا الموضوع والدعاية اليه والبحث فيه كانا ناتجة عن حاجة .

ولم نجد اصدق من شعر ابي الفتح البستي (توفي سنة ٤٠٠ — ٤٠١ ه) في شرح هذا المحيط . والذي يزيدنا تثبتاً من صدق قوله ان الرسائل تضمنت بيتاً من نونيته المشهورة المعروفة « بعنوان الحكم[٩] » قال ابو الفتح :

عفاء على هذا الزمان فانه　　زمان عقوق لا زمان حقوق

فكل رفيق فيه غير موافق　　وكل صديق فيه غير صدوق

وقال وفي قوله مرارة اليأس والتشاؤم :

---

(٦) الرسائل ج ١ ص ١٤٤ قابل القسم الثاني من الجزء الاول ص ١٠٣ ، ج ٢ ص ٣٦ ، ج ٤ ص ٩٧ ، ١١٨ من الاسفل — ١١٩ من الاعلى

(٧) مقابسات التوحيدي ص ١١٤　(٨) منه ايضاً ص ١٢١

(٩) طبقات السبكي ج ٤ ص ٥

ومن يفتش على الاخوان مجتهداً فجل اخوان هذا الدهر خوّان

ثم قال

فديتك قلّ الصديق الصدوق وقلّ الخليل الحظي الوفي

وقال ايضاً

الدهر خداعه خلوب وصفوه بالقذى مشوب
واكثر الناس فاعتزلهم قوالب ما لها قلوب[١٠]

واخيراً يستلفت نظرنا ما جاء في الرسائل حيث يصب المؤلف جام غضبه على علماء السنة الذين «يخوضون في المعقولات وهم لا يعلمون في المحسوسات» ويأنفون ان يقولوا (لا ادري !) ويثيرون الناس على احرار الفكر ويعدون علم المنطق والطبيعيات زندقة ويدعون بهذا نصرة الاسلام فهم اعداء لاهل العلم مخالفون لاهل الورع مضادون لاخوان الصفا[١١]

في محيط كهذا لا شيء انفع للناس من دعاة ينشرون لواء الصداقة والمحبة بين الناس ناهيك من الاخوة .

والان بقي علينا ان نبين كيف اختار الاخوان لفظة «الصفاء» ليضيفوها الى «اخوان» لتدل عليهم

وهنا ايضاً نرى ان الاخوان قد استوحوا عصرهم فوجدوا فيه ضالتهم المنشودة . فالصفاء من خلال المتصوفة الذين اخذوا في الازدهار تحت ظلال الاسلام منذ القرن الثاني للهجرة . ويحب هؤلاء في تحري اصل كلمة (تصوّف) ان يشتقوها من الصفاء . وهذا شائع في المشرق لما اشتهر به اهل التصوف من الدعوة الى (صفاء القلب[١٢])

---

(١٠) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ دائرة المعارف للبستاني ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٦

(١١) الرسائل ج ٤ ص ٩٥ — ٩٧

(١٢) Nicholson, Lit. Hist , P. 228

وها نحن نجد هذا صحيحاً في مؤلفين من اقدم المؤلفات الصوفية اولهما للطوسي المتوفى سنة ٣٧٨هـ وثانيهما للقشيري الذي وضع رسالته سنة ٤٣٧هـ قال ابو الحسن القناد (الصوفي مأخوذ من الصفاء وهو القيام لله عز وجل في كل وقت بشرط الوفاء[١٣]) وقال الكتاني (التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء[١٤])

وجاء شعراً :

صفو الصفا في صفوه اذعان   وصفاؤه في كونه ايقان

هذا هو المعنى الذي كان يقصده مصنف الرسائل — صفاء القلب وطهارة الخلق وتهذيب النفس للوصول الى الله . والرسائل في طبيعتها ميالة الى نزعة صوفية : فالآية (الحمدلله وسلام على عباده الذين اصطفى) الواردة مئات من المرات في الرسائل يستعملها اهل التصوف . وفي المقدمة ما يزيدنا يقيناً ان الاخوان جروا على سنة المتصوفة في اختيار « الصفاء » صفة لهم فنحن نقرأ في مقدمة الرسائل هكذا : « فهرست رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا واهل العدل وابناء الحمد بجمل معانيها وماهية اغراضهم فيها . . . في فنون العلم وغرائب الحكمة وطرائف الاداب وحقائق المعاني على كلام الخلصاء الصوفية صان الله قدرهم وحرسهم حيث كانوا في البلاد » . وهذه الكلمة الاخيرة « حيث كانوا في البلاد » اعتاد الاخوان في رسائلهم ان يقولوها في مقام التحدث عن احد افراد جماعتهم . ولم لم يقلدوا الصوفية ؟ فزيد ابن رفاعة رجلهم الفذ وابو حيان التوحيدي صديقهم الوفي كانا من اهل التصوف انفسهم ونحن بالنظر في كتاباتهم واعتقادهم باب المعرفة موجودة في جميع انواع العلم والمذاهب — نقول بان كثيرين من افراد جماعتهم ان لم يكونوا

(١٣) كتاب اللمع للطوسى ٢٢٥ انظر ايضاً ٣٣٨ و٤٣٠

(١٤) الرسالة القشيرية ص ١٢٧ انظر ايضاً ص ٢

متصوفين فقد درسوا التصوف وتأثروا بآدابه فلا غرابة بعد هذا ان قلد الجماعة اخوانهم اهل التصوف

وربما كان من الطرافة ان نثبت هنا رأيا بيا ووجيها قال به المرحوم الدكتور غولدتصير الالماني (Goldziher) وخلاصة هذا الرأي ان الاسم «اخوان الصفا» قد نقله الاخوان عن كتاب « كليلة ودمنة » لعبدالله بن المقفع (قتل بامر من المنصور حوالي سنة ٧٦٠ م[١٥]) لا سيما وان هذا الكتاب كان متداولاً في ذلك العصر قال الحافظ الامام الفقيه الدغولي (توفي سنة ٣٢٥ ﻫ) « اربعة مجلدات لا تفارقني سفراً ولا حضراً : كتاب المزني وكتاب العين والتاريخ للبخاري وكليلة ودمنة[١٦] » ويقول الجاحظ (توفي سنة ٨٦٩ م) (ومما قرأه الناس من الامثال في شأن الحيل التي وجدوها في كليلة ودمنة[١٧]) واذاً فقد كان هذا الكتاب مصدراً للامثال والحكم فلا يستبعد ان يكون الاخوان قد اخذوا اسمهم من قصة الحمامة المطوقة[١٨] الذي هو مثل «اخوان الصفا» وذلك لان دبشليم الملك قال لبيدبا الفيلسوف «حدثني ان رأيت عن اخوان الصفا كيف يبتدىء تواصلهم . » ومما يزيد هذه النظرية قوة انه جاء بالرسائل ما نصه (فاعتبر بحديث الحمامة المطوقة المذكورة في كتاب كليلة ودمنة[١٩]) جاء في الرسالة الخامسة من القسم الثاني قوله « كما ذكر برزويه الطبيب في كتاب كليلة ودمنة[٢٠] » وجاء في الجزء الاول قوله « وربما يدفع الانسان عدوه بالحيلة كما احتال الغراب على البوم في كتاب كليلة ودمنة[٢١] » وامثلة الغربان الواردة

---

(١٥) Der Islam, Vol. I, P. 22

(١٦) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٤٣

(١٧) كتاب الحيوان ج ٧ ص ٢٩

(١٨) كليلة ودمنة ص ١٢٥

(١٩) الرسائل ج ١ ص ٥٣

(٢٠) الرسائل ج ٢ ص ٨٢

(٢١) « ج ١ ص ٣٠٩

في كليلة ودمنة جاءت في الرسائل (ج ٢ ص ٤٢٢) كذلك جاءت امثلة الحمام (ج ٢ ص ٤٣٢) . وقد يكون ذكر الاخوين كليلة ودمنة في الرسالة المدعوة خطاء (الرسالة الجامعة) والتي هي كما وجدنا بالمقارنة والدرس الرسالة الثامنة من القسم الثاني من الرسائل مع زيادات في البدء والختام وقليل من التحريف — امر يزيد هذا الزعم قوة[٢٢]

هذه الشواهد اذا اضيفت الى رأي غولدتصير — الا يصح لنا ان نقول ان الجماعة قد راقها ما في كتاب كليلة ودمنة من الاشارات والرموز فاستعارت مثل الحمامة المطوقة لتدل على نفسها؟ على ان ايثار هذا الاسم على غيره لم يكن الا نتيجة انعدام الصداقة وانتشار نظرية الصفاء . وربما كانت قصة الحمامة المطوقة هي التي اوحت صيغة الاسم لا الصورة العقلية التي لم تكن الا رد فعل للعصر

بقي علينا ان نعين زمان الجماعة ومكانها :

لقد كان من نتيجة تكتم الجماعة ان جهلنا حتى السنة التي قام افرادها ينشرون افكارهم والبلدة او البلاد التي قد تسرب اليها نفوذهم والمركز الرئيسي الذي كان يرسل الدعاة ويقوم بعملية النشر والتأليف والارشاد الا اننا نعرف ان الزمن الذي تلا عهد المعتزلة والذي انتهى بانتصار الاشعرية كان عهداً فشا فيه التستر والتقية . فاذا ما تغلب امراء آل بويه على بغداد (٣٣٤هـ/٩٤٥ م) سهل على هذه الجماعات السرية ان تتنفس الهواء على الاقل وذلك لان هؤلاء الامراء كانوا من الشيعة الفرس لا يهمهم اسادت السنة ام لم تسد[٢٣] . بعد هذا الحين فقط اخذنا نسمع (باخوان الصفا) .

فسواء بدأت الجمعية قبل مجيء هؤلاء الامراء الى بغداد ام ان ظهورها كان

---

(٢٢) الانسان والحيوان « الرسالة الجامعة — كذا » ص ٦١ و ٦٥ س ١٠ و ١١٧ و ١٢٠

(٢٣) Brockelmann, Ges. der. ar. Lit., Vol I, P. 213.

منوطاً بذهاب عهد المحنة ليس لدينا من الاصول والوثائق ما يمكننا من الجزم بالواحد دون الاخر . على ان الباحث لا يعدم وسيلة يتشبث بها للتوصل الى مقصوده . فنحن نعرف ان شهرة هذه الجماعة برسائلها وان هذه الرسائل كانت الواسطة التي ظهروا فيها للناس فاذا توفقنا الى معرفة تاريخ تأليف هذه الرسائل سهل علينا معرفة تاريخ تأليف الجمعية على وجه التقريب . وهنا ايضاً لا سبيل الى معرفة هذا التاريخ بالضبط وفي مثل هذه الحالة يلجاء الى طريقة علمية خاصة تتلخص في حصر التاريخ بين حدين اقصى وادنى : احدهما يدل على السنة التي لا يمكن ان يكون التأليف قد حدث قبلها والاخر على السنة التي لا يمكن ان يكون التأليف قد حدث بعدها . ومن المؤسف ان الرسائل لم تدرس بعد درساً علمياً لكي نتمكن من التوصل الى هذا الفرق بسهولة فليس لها فهرس ابجدي مطول لاعلامها وكلماتها الاصطلاحية وفيها كثير من الابيات الشعرية عربية وفارسية لا يعرف ناظموها وقد ذكر معظمها الاستاذ ماسنيون في مجلة (الاسلام) الالمانية [٢٤] . وقد وجد بين هذه الابيات قوله :

اعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تدانِ

وقد وجد الاستاذ ماسنيون ان هذا البيت يعزى الى ابن الرومي (توفي سنة ٢٨٣ هـ ٨٩٦ م) [٢٥] فاذاً لم تؤلف الرسائل قبل هذا العهد . ولو كان باستطاعتنا ان نعرف اسماء ناظمي جميع الابيات الواردة في الرسائل لسهل علينا ان نعين تاريخاً متأخراً عن هذا التاريخ كاحد الحدين اللذين اشرنا لهما سابقاً . ولحسن الحظ فاننا وجدنا ان ابا حيان التوحيدي لم يذكر في سنة ٣٠١ هـ رسائل اخوان الصفا بين كتب العلم حين اخذ في ذكر ما جمعه «شيوخ العلم وارباب الحكمة وفرسان الادب [٢٦]» فلا يصح ان يتغاضى

---

(٢٤) Der Islam, Vol. IV., P. 324

(٢٥) تزيين الاسواق للانطاكي ص ١٦ وديوان الصبابة لابن ابي حجلة ص ١٢٦ و ١٧١

(٢٦) رسالتان ص ٢٠٢

صديق الجماعة عن ذكر الرسائل لو كانت حقاً قد ظهرت للوجود آنئذ

ومما يساعدنا على هذه المعضلة درس النظريات الفلسفية والتحديدات الخاصة بمختلف العلوم . فالرسائل تعرف الجيب الهندسي هكذا « السهم اذا اضيف الى نصف القوس يقال له عند ذلك الجيب المنكوس واذا أضيف نصف الوتر الى نصف القوس يقال له عند ذلك الجيب المستوي » وهذا التعريف لم يظهر قبل ظهور مدرسة البتاني(٣٧) (ابو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني الحراني الصابي المتوفي سنة ٣١٧ هـ ٩٢٩ م) . وهذا لا يسمح لنا ان نجزم بانها الفت بعد سنة ٣١٧ هـ اذ قد يكون اقتباس الاخوان لهذا التعريف جاء في وقت سابق/الى ان نصطدم بالسنة السابقة : ٣٠١ هـ

وكنا قد اسلفنا القول ان بدء ظهور الاخوان كان اثر تسيطر آل بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ . ولم نسمع بهم قبل هذا التاريخ مع انهُ يجوز ان تكون جماعتهم قد تأسست قبله وبقيت اخبارها طي الكتمان . على ان هذا لا يعوقنا فنحن نبحث بالجمية منذ ظهورها كما وصلتنا اخبارها ولا ننظر الى مخبآت الغيب — لهذا نميل الى اعتبار هذا التاريخ (٣٣٤ هـ) الحد الاول الذي لا يمكن ان تكون الرسائل قد الفت قبله — لولا اننا وقفنا على بيت من الشعر من نظم أبي الفتح البستي ورد في الرسائل(٣٨) وهو

اجهد على النفس واستكمل فضائلها فانت بالنفس لا بالجسم انسان(٣٩)

والبستي هذا ولد سنة ٣٦٠ هـ وتوفي سنة ٤٠٠ — ٤٠١ هـ — وهذا امر ليس من الهين مصاقبته مع ما لدينا من النصوص . فهذا البيت جاء في النصوص الاخرى مسبوقاً بآخر هو :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح فيما فيه خسران

---

(٣٧) Nallins, Albategnius, III, P.231-232; Encyc. of Islam, art. al-Battani

(٣٨) رسالة الكون والفساد ج ٢ ص ٢٠

(٣٩) مجاني الادب ج ٤ ص ٩٥ بستاني ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٦

ومع ذلك فلم يقتبس مع رفيقه . اضف الى ذلك ان البيت الاول جاء ايضاً على هذه الصورة

اقبل على النفس فاستكمل فضائلها فانت بالنفس لا بالجسم انسان

فاذا كان البستي ولد سنة ٣٦٠ هـ ونحن نعلم من حديث ابي حيان ان طائفة من الرسائل وجدت في حوالي سنة ٣٧٣ هـ . فياللعجب هل تمكن البستي من نظم الشعر والاشتهار به وعمره ١٣ سنة ! ؟ !

ولكي نوفق بين هذه الوجهات المتناقضة فرضنا ان الرسائل لم تؤلف في سنة واحدة كما هو معقول من محتوياتها وممكن من حديث ابي حيان الذي لم ير الا طائفة منها في سنة ٣٧٣ هـ . خصوصاً وان هذا البيت جاء في القسم الثاني من الرسائل نقول هذا ولا نرى مانعاً من ان يكون البستي نفسه قد اقتبس هذا البيت عن الرسائل واضافه الى قصيدته اذ ليس لدينا من الاصول ما يؤكد اصالة كل بيت من قصيدة الشاعر هذه نترك البحث عند هذه النقطة الى ان تتوفر لدينا شواهد اخرى — ونعود الى ما نحن منه متأكدون

فالرسائل لم تؤلف على الراجح قبل سنة ٣٣٤ هـ وهذا هو الحد الاول . اما الحد الثاني فايجاده اسهل من هذا بكثير فقد وصلنا حديث ابي حيان التوحيدي مع وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة الذي وقع في حدود سنة ٣٧٣هـ في شأن زيد بن رفاعة وفي اثناء الحديث قال الوزير للتوحيدي «هل رأيت هذه الرسائل ؟ » فاجاب «رأيت جملة منها وهي مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية[٣٠] » فالجماعة قد نشرت جملة من رسائلها سنة ٣٧٣ هـ

واذاً فتاريخ نشوء الجماعة وتأليف رسائلها يتراوح مابين سنتي ٣٣٤ هـ و ٣٧٣هـ. هذا ما توصلنا اليه في تحقيق زمان الجماعة . اما المكان فقد جاء في « اخبار الحكماء » للقفطي مانصه : « وقد اقام (زيد بن رفاعة) بالبصرة زماناً طويلاً وصادف

---

(٣٠) القفطي ص ٥٩

بها جماعة . . . [٣١] لاصناف العلم وانواع الصناعة منهم ابو سليمان . . . الخ » فالبصرة اذاً مركز الجماعة وفيها قامت موسستهم على رأي القفطي (من حديث ابي حيان)

ولسنا على حق في الاعتراف بصحة هذه القضية كحقيقة تامة . فلا شاهد آخر ازاء القفطي مستقلاً عنه يذكر هذا الامر . وقد تحاشى الاخوان ذكر اسم البلدة التي كتبوا فيها رسائلهم كما هي العادة كما تحاشوا ذكر التاريخ — هذا اذا لم يكن هذان قد فصلا عن الاصل لسبب من الاسباب كتآكل الورق او ضياعه وما شاكل ذلك . . .
ورغماً عن هذا الاعتراض فان جمهور المستشرقين الذين درسوا شيئاً عن اخوان الصفا يوافقون القفطي ولا يتريثون حتى يجدوا شواهد اخرى فهذا فلوغل Flügel يقول ان مركزها البصرة [٣٢] وكذلك رأي دي بوير De Boer [٣٣] ومكدونالد Macdonald [٣٤] ولان پول [٣٥] Lane-Poole ونيكلسون [٣٦] Nicholson

ولعل الملاحظة الآتية حجة تدعم رأي القفطي وتبرر مجاراة العلماء له : كانت البصرة عاصمة الاسلام في العلم ومحط رحال كثير من رجال الفرق والمذاهب منذ العهد الاموي يؤمها العرب والعجم على السواء ويقصدها رائدو العلم ومحبو الفلسفة : ففيها قامت المعتزلة وفي مسجدها اختمرت افكار حسن البصري زعيم مدرسة الزهد والتصوف وفي مسجدها ايضاً اعلن الاشعري اخلاصه للسنة . ولم يكن شأن الجماعات السرية وغير السرية غريباً عن البصرة ففيها كان بشار بن برد الشاعر يناظر جماعة من دعاة حرية الفكر كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد الى ان قتل بامر من الخليفة المهدي عام ٧٨٣ م [٣٧]

---

(٣١) هكذا بالاصل ولعله قد ضاعت كلمة او كلمات

(٣٢) Z. D. M. G. Vol XIII, P. 28

(٣٣) Art. Ikhwan etc. in the Encyc. of Islam

(٣٤) Muslim Theol. P. 167

(٣٥) Stud. in a Mosque, P. 186-7

(٣٦) Lit. Hist. P 370

(٣٧) Brockelmann, Vol. I, P. 213; Nicholson, op. cit. P. 374

ولذلك ارجح ان الجماعة قد اختارت البصرة وفضلتها على غيرها لانه يكون بمستطاعها الاتصال بكثير من اصحاب المذاهب واهل الرأي وذوي المقالات والعلم لا سيما وان الاخوان اشتهروا بعدم تعصبهم لمذهب دون الآخر بل كان مبدأهم النظر في جميع العلوم والمذاهب . وارجح ذلك لسبب آخر وهو بعد البصرة عن مركز الخلافة ورجال الحول والطول فلا اضطهاد مباشر يطول افرادها اذاهم تطرفوا او اخذ عليهم الناس تسامحهم

فنتيجة هذا الفصل اذاً هي ان الجماعة قد تأثرت بحالة عصرها السيئة فعقدت النية على تطهيرها — وقد اشتقت اسمها من قصة الحمامة المطوقة لكن الفكرة كانت متأصلة فيهم . وان الرسائل الفت ما بين سنتي ٣٣٤ هـ و ٣٧٣ هـ وان الجماعة قد اختارت البصرة مقراً لها

البقية تالي

الفصل الثالث

بحث في عدد الرسائل ومؤلفيها

لاقت رسائل اخوان الصفا من الاقبال بعد ما لاقته من الاعراض ما لم يلقه كتاب من نوعها فكثر منتحلوها وناقلوها ومختصروها والناسخون على منوالها وذلك لان المؤلفين (كما يقولون) كتموا اسماءهم وضنوا على القراء حتى بهويتهم . وقد اختلف الناس اثر ازدياد الشغف بتلك الرسائل في مؤلفيها . وقد راجعنا اكثر الآراء معتمدين على الاصول العربية بالدرجة الاولى وعلى الابحاث الاخرى بالدرجة الثانية . ولم نر في كل هذه الشواهد بضوء ما توصلنا اليه بدرسنا للرسائل ومعرفتنا بروح العصر وبحثنا في الشخصيات البارزة فيه ما يشفي الغليل فآثرنا ان نأتي على جميع هذه الآراء بمناقشتنا لها فنبين اوجه الصواب والخطأ فيها ثم نتخلص من ذلك الى بسط قضيتنا التي نزعم انها مفتاح معرفة مؤلف الرسائل

والغريب ما جاء في مطبوعة بمبيء من انها اخذت عن «نسخة قديمة صحيحة» من الرسائل بعد استشارة «بعض من سلالة المؤلف» — «الامام الهمام قطب الاقطاب مولانا احمد بن عبد الله» وجاء في ختام الرسائل (ص ٤٠٩ ، ٤١١)

ان ادريس عماد الدين صاحب كتاب « عيون الاخبار » كتب في حياة مصنف الرسائل هذا اما احمد زكي باشا الذي كتب مقدمة حسنة لمطبوعة مصر فقال في هذا المؤلف وفي كتاب عيون الاخبار : « حديث خرافة يا ام عمرو »

وعلى كل فتفسير هذه الظاهرة هين على كل مشتغل بدرس المخطوطات فهذا « الامام الهمام » لم يكن سوى ناسخ لتلك الرسائل وهذا الامر الذي اجهله احمد زكي باشا نفسه لدحضه لم يجز على مصنف فهرست الكتب العربية (لا المخطوطات) في المتحف البريطاني الاستاذ A. G. Ellis (ج ١ لندن سنة ١٨٩٤ — نمره ٣٦ (A) ١٤٥٤٠) ٠ فهو يذكر ان احمد بن عبد الله « حرر رسائل اخوان الصفا » Redact

ولكي لا نرمي المشرفين على مطبوعة بمبيء بالجهل التام نقول انه جاء في آخر الرسائل (ص ٤١١) بقلم احد مصححي المطبعة « محمد بهاء الدين » ان مؤلفي الرسائل « جماعة من صدور الصدر الاول في القرن الثاني وقيل في القرن الرابع بعد الهجرة — كانوا اخواناً متحابين واكفاء متصافين » وبالرجوع الى ما قررنا في الفصل الثاني بشأن زمان الجماعة يتضح ان الرأي الاخير عين الصواب لانه يتفق ومعظم ما اجمع عليه الناس من ان الرسائل الفها زمرة من العلماء حوالى منتصف القرن الرابع للهجرة

يقول القفطي (توفي سنة ٦٤٦ هـ) ان جماعة اخوان الصفا « اجتمعوا على تصنيف كتاب في انواع الحكمة الاولى » ولما كتم مصنفوها اسماءهم اختلف الناس في الذي وضعها فكل قوم قالوا قولاً بطريق الحدس والتخمين[١] ٠ فقال احدهم هي من كلام بعض الائمة العلويين ويقول فلوغل انها عزيت الى علي نفسه[٢] على انه اختلف في اسم ذلك الامام ٠ وقال آخرون هي تصنيف بعض متكلمي

---

(١) القفطي ص ٥٨ و٥٩

(٢) Z. D. M. G., Vol. XIII, P. 19

المعتزلة في العصر الاول وزاد فلوغل ان قوماً قالوا هي من تأليف الحلاج واخرون الغزالي واخرون ايضاً جابر بن حيان

ويقول القفطي انه ظل شديد البحث والتطلب حتى وقف على حديث ابي حيان التوحيدي (توفي بعد هذا الحديث بسبع سنوات اي سنة ٣٨٠ هـ و ٩٩٠-١ م) مع وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة . ومن هذا الحديث استخلص القفطي ان زيد بن رفاعة أقام بالبصرة وصادف بها جماعة منهم ابو سليمان محمد بن معشر البيستي[٣] المعروف بالمقدسي وابو الحسن علي بن هارون[٤] الزنجاني وابو أحمد المهرجاني[٥] والعوفي[٦] وغيرهم — اجتمعوا على تأليف كتاب الرسائل . ويقول حاجي خليفه[٧] ان الرسائل أملاها ابو سليمان محمد بن نصر البستي المعروف بالمقدسي وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني وابو احمد النهرجوري والعرفي زيد بن رفاعة (كذا بالاصل دون واو العطف والعوفي بالراء) كلهم حكماء اجتمعوا وصنفوا احدى وخمسين رسالة»

غير اني طالما ساءلت نفسي وانا اقلب صفحات الرسائل يوماً بعد يوم جاداً وراء استخلاص الشواهد من سياق الكلام — هل هذه الرسائل وبالحري هل لغتها واسلوبها وامثلتها وشواهدها تأليف عقل واحد ؟ وقد زادني درسي ميلاً الى الوجهة الايجابية فصرفت وقتاً اتحرى البينات الواضحة من الرسائل اولاً ومن الاصول الاخرى ثانياً وها انا اقدم نتيجة ما توصلت اليه لا لاني اجزم بصحته ولا لاني ادعي اني قمت بفض هذا المشكل نهائياً — وحسبي من درسي هذا اني اوضحت الطريق واشرت الى المراجع وتوصلت الى ما اسميه نظرية ليس الا

لا بينة قاطعة في الرسائل أنها من تأليف شخص واحد وقد اعتاد كاتبها ان

---

(٣) يقول حاجي خليفة بل نصر ويقول بروكلمن بل مشير والبستي وردت هكذا بدون الياء

(٤) يقول بروكلمن بل «زهرون»

(٥) حاجي خليفه يقول «نهرجوري»

(٦) يقول حاجي خليفة العرفي : زيد بن رفاعة

(٧) كشف الظنون ج ١ ص ٥٧٠—٥٧١

يتكلم عن نفسه او عن اخوانه بالجمع لا بالمفرد فيقول — وعدنا — ايدنا الله — فمنا — وجودنا . . . الخ الا ان خاله عدة اماكن تكلم فيها المؤلف كفرد اجتزأ منها على ما يأتي :

(١) «واما تحليل العدد الى الواحد فعلى هذا المثال الذي أقول انه اذا أخذ من العشرة واحد تبقى تسعة[٨]»

(٢) «وسأبين من ذلك طرفا يعينك على ذلك و يبلغك الى معرفة ما وصفت لك . . . قد فرغنا من ذلك رجعنا الى الابانة عن » وايضاً قوله « أعني »[٩]

(٣) وانما ذكرت لك ذلك لعلك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة . . »[١٠]

(٤) «فعلى هذا القياس نقول في قبول الانسان الهام الملائكة والوحي . . . فأقول ان قبول نفسه الهام الملائكة والوحي . . والدليل على صحة ما قلنا وصايا الانبياء .[١١]»

(٥) «فهذا الذي قد ذكرتهُ كله وحكيته عنهم من اصولهم ومقدمات علومهم في تصحيح مذهبهم في السحر والطلسمات وان كنت تركت أكثر ما ذكرت واسقطت اكثر مما حكيت تجنباً الاكثار وطلباً للاختصار . . . غير أني اذكر جملة اخرى لتقف منها ايها الاخ ايدك الله على جميع اغراضهم .[١٢]»

(٦) «ولعل كثيراً من يقف على رسائلنا هذه يظن ان مرادنا في وضعها هو تعليم علم النجوم . ولعمري ان ذلك من احد اغراضنا فيها لاننا نحب لاخواننا ايدهم الله ان يقفوا على جميع العلوم .[١٣]»

(٧) «فاستحسنت هذا ورأيته سحراً مليحاً ورأيت منفعة عاجلة والظفر به مليحاً . .

---

(٨) الرسائل قسم ١ ج ١ ص ٢٣ اسفل — ٢٤ من الاعلى

(٩) الرسائل ج ٢ ص ٣٦٧ (١٠) ج ٢ ص ٤٢٨

(١١) الرسائل ج ٤ ص ١٧٧

(١٢) ج ٤ ص ٢٩٩ بينما نراه على ص ٣٠٢ يتكلم بالجمع

(١٣) الرسائل ج ٤ ص ٣٥٨

فسألته ان يفيدني بذلك ففعل ... فبلغت من ذلك بحسب التوفيق وأريد ان اذكر لك هذا الباب فانه لا غنىً بك ولا بأحد من اخواننا أيدهم الله عنه[١٤].»

(٨) «ثم تكلم بالكلام الاول الذي وصفت لك في باب السباع[١٥]»

فاستناداً على هذه الشواهد المنتزعة من صلب الرسائل واستناداً على كثير غيرها لا يتسع المقام لتعدادها يظهر لي ان كاتب الرسائل فرد آثر التكلم بصيغة الجمع على العموم. ومما يستلفت النظر ان قوله «اعلم يا اخي» والتي تكرر في كل رسالة عدة مرات لم ترد جمعاً «اعلموا ايها الاخوان» الا في الرسالة الثانية من القسم الرابع وعنوانها «الطريق الى الله» وهي خطاب للاخوان عموماً وليس «للاخ البار الرحيم» فقط.

ومما يرجح ما ذهبنا اليه ان الكاتب كثيراً ما يعطف على اشياء سابقة بقوله ذكرنا في رسالة كذا حتى انه كثيراً ما ينقل الفقرات بحروفها وكثيراً ما يستعمل التشابيه والامثلة والقصص بذاتها في عدة أماكن ولا بد لنا هنا ايضاً من تقديم بعض الشواهد اثباتاً لقولنا:

(١) «واوردنا المثالات والاشارات والتنبيهات حسبما جرت عادة اخواننا الكرام وقد سبق منا في رسالة الحاس والمحسوس بيان ان المحسوسات كلها اعراض جسمانية[١٦]»

(٢) «حسب ما وعدنا في الفهرست صدر كتابنا هذا[١٧]»

(٣) «فتكون في ذلك — البحث والمحادثة مع الاخوان — كمثل الطبيب الحكيم الرفيق الذي قد ذكرت قصته في اول الرسالة لاخوان الصفا[١٨]»

(٤) «ذلك ان كل انسان يكون نفسه أصفا جوهراً وأذكى فهماً كما بينا في

---

(١٤) ج ٤ ص ٣٦٥ بينما نراه على ص ٣٦٨ يتكلم بالجمع

(١٥) الرسائل ج ٤ ص ٢٠١ و٢٠٣.

(١٦) الرسائل ج ٣ ص ٣٧ (١٧) الرسائل ج ٤ ص ٢ و٣٦٥

(١٨) ج ٤ ص ١٩٤

رسالة كيفية الطريق الى الله تعالى فكانت اخلاقه وسجاياه لاخلاق الكرام اقرب واشبه كما بينا في رسالة الاخلاق وكان مذهبه واعتقاده باعتقاد الانبياء ومذهب الحكماء أشد تحققاً كما بينا في رسالة الناس وكان (كذا بالاصل) اعماله وسيرته بافعال الملائكة وسيرتها اشد تشبهاً كما بينا في رسائل عشرة اخوان الصفا فأقول ان قبول ... الخ [١٩] »

(٥) ومن امثلة اعادة الكلام بحروفه ما يلي

« قد تناهت دولة اهل الشر وكثرت افعالهم في العالم في هذا الزمان وليس بعد التناهي في الزيادة الا الانحطاط والنقصان » ج ١ ص ١٤٤ ثم وردت ثانية هكذا:

« قد تناهت قوة اهل الشر وكثرت افعالهم في العالم في هذا الزمان وليس بعد التناهي في الزيادة الا الانحطاط والنقصان » ج ٤ ص ٢٢٣

وقد وجدنا ان ما على ص ٢٠٧ من الجزء الرابع يتفق مع اكثر ما على ص ٢٢٣—٢٢٤ من نفس الجزء ابتداء من قوله « وقد اخترناك ايها الاخ البار الرحيم ... الخ »

جئنا بهذه الشواهد البينة دعماً لما تذوقناه من « وحدة الاسلوب » في كتابة الرسائل : فلغتها لغة شخص واحد يستعمل مفردات واحدة ويؤثر اصطلاحات خاصة ويكرر أمثلة مشهورة ويعيد ما ذكره سابقاً من قصص — كل هذا لا نستطيع ان نوضحه بمقتبسات ولا يظهر جلياً الا بقراءة الرسائل من اولها الى آخرها

قلنا هذا وقرأنا بعده للامير الصفدي صاحب — ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء وتذكرة درة غرة ابكار افكار الشعراء — فيما نقله عنه فلوغل الالماني [٢٠] قوله « وشهدت له — مؤلف رسائل اخوان الصفا — بثبوت تقدمه وثبوت قدمه فانه يجتهد في اكثر المواطن على تطبيق الفلسفة على الشرع » ايضاً قوله «ومن

---

(١٩) الرسائل ج ٤ ص ١٧٥

(٢٠) Z. D. M. G., Vol. XIII, PP. 23 —24

اشارات رموز مؤلف الرسائل » وفي النسخة المخطوطة في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين (ص٧) تقرأ هكذا : « واذ فرغنا من ذكر ما قصدناه في رسالة العدد على سبيل الاختصار لا على صورة الكمال كما قصد مصنفها الخ »

عنّت لنا هذه الملاحظات فأخذنا نتساءل عمن عسى يكون هذا المؤلف . وقد استرعى انتباهنا ما ذكره القفطي نقلاً عن ابي حيان في شأن زيد بن رفاعة من جهة والمقدسي من الجهة الاخرى . قال الوزير لابي حيان «حدثني عن شيء هو أهم من هذا اليّ واخطر على بالي . اني لا ازال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبني ومذهباً لا عهد لي به وكناية عما لا احقه واشارة الى ما لا يتوضح شيء منه ... واشهر منه في عرض ذلك دعوى يتعاظم بها و ينتفخ بذكرها فما حديثه وما شأنه وما دخلته فقد بلغني يا أبا حيان انك تغشاه وتجالس اليه »

فقال التوحيدي « هناك ذكاء غالب وذهن وقاد ومتسع في قول النظم والنثر مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة وحفظ ايام الناس وسماع المقالات وتبصر في الآراء والديانات وتصرف في كل فن اما بالشد و الوهم واما بالتوسط المفهم واما بالتناهي المخم .. » فعلى هذا ما مذهبه ؟ « لا ينسب الى شيء ولا عرف برهطا لجيشانه بكل شيء وغليانه بكل باب ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه .. » وزاد على ذلك انه صادف تلك الجماعة « فصحبهم وخدمهم » . فاما معنى الصحبة فان يكون احد جماعتهم بالوفاء وأخا روحهم بالصفاء و [illegible] معنى الخدمة ما [illegible] عنهم في اسداء النصح والتبشير بمبادىء الجماعة و برهاننا على ذلك ما جاء في الرسائل ما يلي :[٢١] « وقد ندبنا لكل طائفة — من طبقات الاخوان المختلفة — احداً من اخواننا ممن ارتضيناه في بصيرته ومعارفه لي وبعثنا في خدمتهم بالقاء النصيحة اليهم بالرفق والرحمة والشفقة عليهم .. »

فزيد بن رفاعة اذاً كان احد افراد هذه الجماعة المقدمين لا بل «خادمهم الامين» والقيم عليهم يحرّضهم النصح و يرشدهم الى سبيل الهدى . وقد زعم فلوغل ان زيدا لعب الدور الاكبر في تأليف الرسائل [٢٢] . وقال اواري [٢٣] يظهر انه كان رئيس الجماعة و باقي الاعضاء مساعدون له وان له الفضل الاكبر في التأليف .

والحقيقة ان ما قاله التوحيدي في حق زيد لينطبق على محتويات الرسائل فكل تلك الاوصاف من حيث العلم والمعرفة والايمان مبثوثة في الرسائل . وما كان ابو حيان من الذين يلقون القول جزافاً لنشك في صحة قوله وقد عاش ومات وهو غير راضٍ عن عصره [٢٤] . وما كان الوزير ليسأل عن زيد لولا ما اشتهر من امره وما ظهر من شأنه اذ يقول « حدثني عن شيء اهم من هذا الحيّ واخطر على بالي » . والوزير لم يسأل عن « اخوان الصفاء » وانما سأل عن زيد فكأن الناس عرفوا الجماعة بزيد هذا

نقول هذا وننتقل الى رأي آخر حري بالاعتبار . فقد ذكر فلوغل [٢٥] في اقتباس له عن كتاب « تاريخ الحكماء » للشهرزوري ان هؤلاء الحكماء — اخوان

---

(٢٢) Z. D. M. G., Vol. XIII, P. 22

(٢٣) Studies in a Mosque, P. 195

(٢٤) محمد كرد علي مقال في مجلة المجمع العلمي العربي ج ٣ و ٤ و ٥ من سنة ١٩٢٨

(٢٥) Z. D. M. G., Vol, XIII, P. 21

الصفا — « اجتمعوا وصنفوا رسائل اخوان الصفا » وانما المهم كل المهم قوله « والفاظ هذا الكتاب (الرسائل) للمقدسي» . ويقول القفطي[٣٦] ان الوزير سأل أبا حيان عن « هذا المقدسي » فاجاب التوحيدي انه قد سأله في معضلات فلسفية فقهية في اوقات كثيرة بحضرة الوراقين بباب الطاق « فسكت وما رآني اهلاً للجواب لكن الحريري غلام ابن طرارة هيجه يوماً في الوراقين بمثل هذا الكلام فاندفع فقال : الشريعة طب المرضى والفلسفة طب الاصحاء والانبياء يطببون المرضى حتى لا يتزايد مرضهم وحتى يزول المرض بالعافية فقط واما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على اصحابها حتى لا يعتريهم مرض اصلاً . وبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأمر مكشوف لان غاية تدبير المريض ان ينتقل به الى الصحة هذا اذا كان الدواء ناجعاً والطبع قابلاً والطبيب ناصحاً . وغاية تدبير الصحيح ان يحفظ الصحة . واذا حفظ الصحة فقد افاده كسب الفضائل وفرغه لها وعرضه لاقتنائها وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى وقد صار مستحقاً للحياة الالهية والحياة الالهية هي الخلود والديمومة ... »

فكل من شهادة الشهرزوري والتوحيدي تدفعنا ايضا الى التبصر في امر المقدسي سيما وان القفطي اورد اسمه في رأس قائمة اسماء الاخوان ونحن نعرف بالنظر في علم النفس ان المرء عموماً يغلب عليه ذكر الاهم اولا اما لتوجيه الانظار اليه او لان ما له من الصورة العقلية في ذهنه تتضاءل أمامها باقي الصور

ولعل امر التأليف هذا له مفتاح آخر الا وهو كيفية نشوء الجماعة : هل قامت بدعوة رجل واحد ثم اخذت بالنمو أم هل قام بها الجماعة دفعة واحدة ؟ قد يكون كل من هؤلاء الفضلاء كان شاعراً على انفراد من الآخرين بالحاجة الماسة الى تأليف جماعة من الاصدقاء ولكن من هو الذي تجرأ منهم على مفاتحة اصدقائه ؟ جاء في الرسائل ان الجماعة قامت بدعوة حكيم واحد وقبل بيان ذلك يجب ان

---

(٣٦) القفطي — ص ٦٢—٦٣

نذكر ان من عادة الاخوان ان يشيروا الى الامور اشارة رمزية وهم يؤثرون القصة على لسان الطير والحيوان او حكماء الماضي على غيرها من ضروب الفن . وهذه القصة الآتية على ما نرى مفتاح هذه المعضلة :

« في الزمان السالف ذكروا انه كان رجل من الحكماء رفيقاً بالطب دخل الى مدينة من المدن فرأى عامة اهلها بهم مرض خفي لا يشعرون بعلتهم ولا يحسون بدائهم ... ففكر الحكيم في امرهم ... فعلم انه ان اخبرهم بما هم فيه لا يستمعون قوله ولا يقبلون بنصيحته بل ربما ناصبوه بالعداوة ... فاحتال في ذلك لشدة شفقته على ابناء جنسه ورحمته لهم وتحننه عليهم .. بان طلب في اهل تلك المدينة رجلاً من فضلائهم ... فأعطاه شربة » اكسبته خفة في بدنه وراحة في حواسه وقوة في نفسه . وهذا بدوره اعان الحكيم على « مداواة اخ من اخوانه » ممن هو اقرب الى الصلاح . فبعد ان « خليا به من رفقائه » داوياه بذلك الدواء فبرأ من ساعته . وهذا ايضاً اعانهما على مداواة آخر . وهذا الاخير ايضاً عاونهم على مداواة ثالث — « ثم تفرقوا في المدينة يداوون الناس واحداً بعد آخر في السر حتى ابرؤا اناساً كثيراً وكثر انصارهم واخوانهم ومعارفهم ..[٢٧] » ومما يدل على ان مصنف الرسائل عنى بمثل هذا الطبيب افراد جماعة الاخوان ما جاء في الرسالة الموسومة « كيفية الدعوة الى الله » اذ يقول — « فتكون في ذلك — البحث والمحادثة مع الاخوان — كمثل الطبيب الحكيم الرفيق الذي قد ذكرت قصته في اول الرسالة لاخوان الصفا[٢٨] »

ويساعدنا في حل هذه المعضلة شيء آخر جاء في الرسالة الموسومة خطأً « بالجامعة » والتي هي معظم الرسالة الثامنة من القسم الثاني من المجلد الاول من مطبوعة بمبيء — وذلك لانه شديد الشبه بقصة هذا الحكيم . ومجمل هذه القصة الرمزية ان النفوس وجدت في مكان علوي متآخية متحابة لا تعرف الحسد ولا العداوة حتى علقت بهذا الجسد فضاعت تلك الخصال منها وحلت محلها الاخلاق السيئة . وقد خطر لاحدى

---

(٢٧) الرسائل ج ٤ ص ١٠٥—١٠٦ (٢٨) ج ٤ ص ١٩٦

تلك النفوس خاطر العودة الى الوطن الاصلي فقصت على ثانية حديثها فصادف منها قبولاً فصارتا تفكران في كيفية النجاة . واخيراً تحققن ان ذلك لا يتم الا بالتعاون على بناء سفينة (الرسائل او الجماعة) تقلهما الى وطنهما الاصلي : وودّتا لو كان معهما من يساعدهما اذ كلما زاد العدد كلما كان الوصول الى الهدف أيسر وهكذا كان فقد اخذتا تذكران « اخوانهما من بلدهما » حتى التأم جماعة على بناء تلك السفينة[٢٩] التي كثيراً ما يرد ذكرها في الرسائل « كسفينة النجاة » .

أفلاَ يصح لنا بعد هذه الشواهد كلها أنْ نُرجّحَ أنَّ الرسائل وضعت بلغة رجل واحد نرجّح انه المقدسي . وانه كان على الجماعة رئيس مقتدر هو زيد بن رفاعة؟ على اننا نحتاط في هذا الترجيح ايضاً فمادة الرسائل على الراجح هي «محرر جلسات» الاخوان . اذ نعرف بطريقة لا مجال الريب فيها انه كان لهم اجتماعات يتذاكرون فيها واكثر مذكراتهم في أمور النفس[٣٠] والعلوم الاخرى . وليست تلك المادة نتيجة عقل واحد قط . فكل هؤلاء الفضلاء على ما يظهر كان مطاماً على زبدة افكار العصر متضلعاً من علوم النقل والعقل على تفاوت فيما بينهم . فاذا التأم عقدهم تباحثوا وقرروا ما شاءوا تقريره ثم طلبوا الى احدهم ان يقيد تلك المباحثات بلغته (طبعاً) ثم يقرأها عليهم فيقرونها بعد الاصلاح ويدعم هذا الترجيح مبدأ القوم في التعاون وتقسيم العمل .

نعود الآن الى ما قلناه اولاً من ان الرسائل لاقت اقبالاً بعد ان لاقت اضطهاداً فكثر منتحلوها ومقلدوها والناسجون على منوالها ومن الذين جاءتنا اسماءهم كمؤلفي « رسائل اخوان الصفا » مَسْلمة المجريطي[٣١] (نسبةً الى مدريد) المتوفي سنة ٣٩٥ او ٣٩٨هـ=١٠٠٤م او ١٠٠٧ م . قال المجي[٣٢] (١٠ ١—١٠٦٤م)

---

(٢٩) الانسان والحيوان ص ١٩٥—١٩٧

(٣٠) الرسائل ج ١ ص ٢٤ ج ٢ ص ٢٠ و٢٦٦

(٣١) Brockelmann, Ges. der ar. Lit., Vol. I, P. 213

(٣٢) خلاصة الاثر ج ٤ ص ٦—٧

في ترجمة البهائي ان هذا سئل عن موءلف رسائل اخوان الصفا فكتب «انا الفقير رأيتها منسوبة للمجريطي وما تحققت من هو وما اخباره» ثم قال «رأيت ابن حجر المكي ذكر في فتاويه وقد سئل عن صاحب رسائل اخوان الصفا وما ترجمته وما حال كتابه فاجاب بقوله : نسبها كثير الى جعفر الصادق وهو باطل وانما الصواب ان موءلفها مسلمة بن احمد بن قاسم بن عبدالله المجريطي (ويقال المرجيطي ومجريط من قرى الاندلس) ويكنّى ابا القاسم كان جامعاً لعلوم الحكمة من الالهيات وطبائع الاحجار وخواص النبات واليه انتهى علم الحكمة بالاندلس وعنه اخذ حكماء ذلك الاقليم وتوفي بها في آخر جمادى[٣٣] سنة ٣٥٣ ه وهو ابن ستين سنة . وممن ذكره ابن بشكوال وغيره وكتابه فيه اشياء حكمية وفلسفية وشرعية وممن شدد عليه ابن تيمية لكنه يفرط في كلامه فلا تغتر بجميع ما يقوله[٣٤]» . اما صاحب كشف الظنون ج ١ ص ٥٧١ فيقول ان المجريطي الف كتاباً اسمه (رسائل اخوان الصفا) أوله «الحمد لله الذي خلق فسوى» وعقب على ذلك بقوله «وهو نسخة مغايرة على نمط اخوان الصفا»

وكان المجريطي هذا قد سافر الى المشرق في طلب العلم فاحضر معه الرسائل الاصلية والذي يرجح انه اختصرها او الف على نمطها[٣٥] . ومن هنا عزا بعضهم اليه امر تأليفها . وليس ادل على هذه الظاهرة من جملة وردت بمخطوطة لمختصر الرسائل في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين (نمره ٢٣١—٢٣٢ من فهرس شيخو) وهي «رسائل اخوان الصفا كثيرة ولكن اخوان الصفا قليل» .

وقد عزاها قوم آخرون الى تلميذ المجريطي المعروف بالكرماني (عبد الحكيم عمر بن عبد الرحمن بن احمد بن علي) وهو من هذا القبيل الذي اشرنا اليه . وعلى هذا

---

(٣٣) كذا بالاصل ولعلها جمادى الآخرة

(٣٤) « « ج ٤ ص ٨

(٣٥) Encyc. of Rel. and Eth, Vol. I, P. 290

Carra de Vaux, art. Alchemy (Musl.);

also Z. D. M. G. Vol. XIII, P. 25

فاننا نجد في ملحق فهرس المخطوطات العربية في المتحف البريطاني الدكتور شارل ريو تحت نمرة ٧٠٨ ان المجريطي كتب مختصراً لرسائل اخوان الصفا وجاء في فهرس دهسلان (نمره ٢٣٠٦) ذكر نسخة من «رسائل اخوان الصفا» من تأليف المجريطي . وفي فهرس الكتبخانة الخديوية ج ٦ ص ٩٤ ذكر نسخة من « رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا تسمى بالرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة للحكيم المجريطي » وقيل فيها هناك « وهي على نمط اخوان الصفا »

بقي امر واحد يتعلق بقضية التأليف وهو جنسية الاشخاص الذين وصلتنا اسماءهم كمؤلفي الرسائل ودينهم . والبحث في هذا ايضاً مستعص علينا لقلة المراجع ولتكتم الاخوان ولان الرسائل لم تدرس بعد درساً علمياً لا في الشرق ولا في الغرب .

الا اننا وجدنا في درسنا الرسائل شعراً بالفارسية مثاله ما ورد على صفحة ٧٠— ٧١ (سبعة ابيات) وعلى ص ١٠٢ (بيتان) وعلى ص ١٢٠ (خمسة ابيات) كلها من الجزء الاول كما وجدنا ايام الاسبوع الخمسة الاولى تكتب بالفارسية وكذلك الايام المشرفة في السنة[٣٦] وفي الجزء الرابع وجدنا كلمتين فارسيتين[٣٧] . ويقول فلوغل[٣٨] ان كاتب رسالة الحيوانات يلمح الى انه من بلاد فارس . ويقول برون[٣٩] (Browne) يظهر ان البستي (المقدسي) والزنجاني والمهرجاني هم من الفرس . فالاول نسبة الى بُست في الشرق الاقصى من بلاد فارس والثاني من زنجان في الشمال الغربي منها اما الثالث فمن اسمه مجرداً عن النسبة . ولسنا نرى في هذا ما يحملنا على الجزم بصحة هذه الآراء وكل ما نستطيع ان نستنتجه هو انه كان من اعضاء الجماعة من له المام قليل او كثير باللغة الفارسية اما محتويات الرسائل وخصوصاً نزعتها الشيعية العلوية فلا تمنعنا من ترجيح وجود الفرس في اعضاء الجمعية

---

(٣٦) الرسائل ج ٣ ص ٢١ س ١٥

(٣٧) ج ٤ س ٢٠٠ س ١٣ و ١٤

(٣٨) Z. D. M. G. vol. XIII, P. 23

(٣٩) Lit. Hist. of Per., vol. I, PP. 293,378

ويدل ظاهر الرسائل ان افراد الجماعة من المسلمين المتشبثين بكل شاردة وواردة من الآيات والاحاديث يستعملونها لدعم النظريات الفلسفية الطبيعية . فكم من آية استخدمت لتلائم حالات لم تخطر على بال المسلمين الاول وكم من حديث — صحيح او غير صحيح — استخدم للبرهان على اراء افلاطون وفيثاغورس والحق ان القوم كما اعترفوا عدة مرات في الرسائل لا ينتمون الى عقيدة ما ولا يتعصبون « لرأي من المذاهب » ولا يعرضون عن نوع من العلم دون نوع آخر[٤٠]. فالمسيح وسقراط ومحمد وعلي كلهم اهل للقدوة . جاء في الرسائل « نحن لا نعادي علماً من العلوم ولا نتعصب على مذهب من المذاهب ولا نهجر كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة[٤١] » ولماذا ؟ « لان رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها[٤٢] »

فاعضاء الجماعة حكماء لا ينظرون الى ظاهر ما تدل عليه آيات الكتب المقدسة بل يفسرونها تفسيراً باطنياً سواء منها الاسلامي والنصراني والوثني : خذوا الحكمة ولو جاءتكم من الكافرين : الا ان اتصال الجماعة بالاسماعيلية من غُلاة الشيعة أمر كاد يتفق عليه الباحثون وله ما يبرره في الرسائل نفسها وسنعرض لهذا البحث في فصل تالٍ

واذاً فقد تمكنا على قلة ما لدينا من أصول من تمهيد الطريق لمن يود متابعة هذه الابحاث وعلينا الآن ان نولي وجوهنا شطر معضلة أخرى : ابداً هكذا في درس اخوان الصفا : معضلة في اثر الاخرى — وهذه المعضلة هي : عدد الرسائل ولا سبيل الى الوصول الى نتيجة حاسمة في هذا الخصوص ايضاً حتى اننا لا نستطيع الا ترجيحاً بسيطاً . ولا سبيل الى ذلك الا بمقابلة جميع النسخ الموجودة من الرسائل الآن وترتيبها بحسب تواريخها ثم استخلاص الحق من الباطل

---

(٤٠) الرسائل ج ٤ ص ١٣٠ س٣ من الاسفل ، ص ١٣١ س ١١
(٤١) الرسائل ج ٤ ص ٢٠٩ (٤٢) الرسائل ج ٤ ص ١٢٤

وهكذا فعدد الرسائل في مطبوعة بمبيء اثنان وخمسون[٤٣] فالقسم الاول فيه اربعة وعشرون رسالة والثاني سبعة عشر رسالة والثالث عشر والرابع احد عشر رسالة . والغريب ان يكون عددها هكذا دون اعتبار الرسالة الجامعة واليك البيان : « الرسالة الجامعة لما في هذه الرسائل المتقدمة كلها كل الرسائل كالمقدمات لها والمداخل اليها والادلة عليها والانموذج لا ينفتح غالِق معاصها ولا ينكشف مستور غامضها الا لمن تهذب بهذه الرسائل الاثنتين والخمسين[٤٤] . » ثم « وهي اثنان وخمسون رسالة ورسالة في تهذيب النفوس واصلاح الاخلاق . .[٤٥] » واخيراً « ونحن قد اخذنا معانيها واقصى اغراض واضعيها —الكتب الفلسفية— وأوردناها بأوجز ما يمكن من الاختصار في اثنتين وخمسين رسالة[٤٦] »

وهنا يبدأ التناقص في القول فيصبح عدد الرسائل حتماً واحد وخمسون خلا الجامعة[٤٧] واليك البيان « بينا كيفية ذلك في رسائلنا الاحدى والخمسين رسالة[٤٨] » ثم « وعملنا في هذه العلوم والآداب احدى وخمسين رسالة كل واحدة منها في فن من العلوم ونوع من الآداب[٤٩] » وفي الرسالة الاخيرة من الرسائل يقول المؤلف « خمسين رسالة تقدمت لنا قبل هذه الرسالة[٥٠] » ويقول « وهذه الرسالة هي آخر الرسائل من القسم الرابع وهي الحادية والخمسون[٥١] » ويقول في موضع آخر « وقد لخصنا ما اوردناه في رسائلنا الاحدى والخمسين في رسالة مفردة عن الرسائل فسميناها الجامعة وهي خارجة عن جملة الرسائل اوردنا فيها بيان ما اختبرناه في غيرها باخصر ما امكننا منهُ والاجود عندنا ان لا تقرأ الرسالة

---

(٤٣) فهرس الرسائل ص ٢ (٤٤) الفهرس ص ١٧

(٤٥) فهرس الرسائل ص ١٢—١٨ ، ١٨ (٤٦) ج ١ ص ٢٣

(٤٧) ج ٤ ص ٢٢٢ cf. Brockelmann, Ges. der. ar. Lit., Vol. I, P. 213

(٤٨) ج ٢ ص ١٠٢ قابل ص ٣٢٩

(٤٩) ج ٤ ص ٩٧ و ١٢٠ س ٩ و٢١٣ س ٧ و ٢٢٢ و ٢٨٧

(٥٠) ج ٤ ص ٢٨٨ (٥١) ج ٤ ص ٢٨٨ و٣٠٩

الجامعة الا بعد قراءة رسائلنا الاحدى والخمسين ..[٥٢] »

واذاً فعددها يختلف في نسخة واحدة فبينما نجد هذا العدد اذا مررنا بالرسائل واحدة واحدة (٥٢) رسالة خلا الجامعة ونرى الفهرس يذكرها هكذا — نجد شواهد اخرى من نفس الاصل تقول عكس ما سبق . وقد ارتبنا اولاً في أصالة الفهرس حتى وجدنا ما يدل على انه من وضع مصنف الرسائل واليك قوله « حسب ما وعدنا في الفهرست صدر كتابنا هذا[٥٣] » وقوله « ينبغي لمن حصلت له هذه الرسائل من اخواننا الكرام ان يدفع منها الى كل مستحق ما يقرب من فهمه وما يعلم انه يصلح له او يليق بمرتبته اولاً فأولاً على الترتيب الذي رتبناه في رسالة الفهرست[٥٤] » ويقول القفطي « افردوا لها فهرسا[٥٥] »

فأيهما هو الصحيح يا ترى ؟

وجدنا بمعارضة مطبوعة مصر أنها تقرب جداً من مطبوعة بمبيء ورجحنا انها نسخة عنها عن اخرى شبيهة بها وعليه فلا قيمة لها في حل هذا المشكل وفيما نحن نبحث في امر هذه المعضلة عنت له فكرة نأتي عليها كنظرية ليس الا . وذلك اننا لاحظنا في الرسائل ميلاً الى نظرية فيثاغورس في العدد وخواصه والسعي للتوفيق بين تلك الخواص وظواهر الكون . وقد لاحظنا ان عدد الرسائل (٥٢) يساوي عدد اسابيع السنة واما اليوم الآخر الذي يزيد على عدد الاسابيع اذا ضربت في الرقم (٧) فهو على ما نرى رمز الرسالة الجامعة . نقول هذا فقط على سبيل التكهن ولا نعني اننا نؤيده او نرجحه .

وما اورده القفطي لا يزيد الامر الا تعقيداً اذ يقول « هؤلاء جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في اصناف الحكمة الاولى ورتبوه مقالات عدتها احدى وخمسون

---

(٥٢) ج ٤ ص ٣ (٥٣) ج ٤ ص ٢٦٥
(٥٤) ج ٤ ص ٢٨٨
(٥٥) القفطي — اخبار الحكماء ص ٥٩

مقالة خمسون منها في خمسين نوعاً من الحكمة ومقالة حادية وخمسون جامعة لانواع المقالات على طريق الاختصار والايجاز[٥٦] » . وقال ايضاً « صنفوا خمسين رسالة في جميع اجزاء الفلسفة علميها وعمليها[٥٧] » تاركاً الرسالة الجامعة على ما يظهر

واذا رجعنا الى السخ الاخرى وجدنا ان النسخة التي ترجم عنها الدكتور فردرخ ديتريسي الالماني معظم الاقسام الهامة الى الالمانية (وهي بخط محمد بن نعمت (كذا) الله الطبيلي الكيلكي) تبدأ هكذا : « الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون . كتاب رسائل اخوان الصفا واصدقاء الكرام وما هية اخلاصهم وهي احدى وخمسين رسالة . . .[٥٨] » وفي فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الاهلية بباريس[٥٩] ان عدد الرسائل واحد وخمسون وفي الجزء السادس من فهرس الكتبخانة الخديوية بمصر (سنة ١٣٠٨) ص ٩٤ نسخة تقول « رسائل اخوان الصفا تأليف الحكماء . . وهي احدى وخمسين رسالة » . وفي مكتبة بوهار بالهند نسخة تقول ان عدد الرسائل ايضاً واحد وخمسون . ويقول حاجي خليفة ان عددها احدى وخمسين رسالة ولم يقل شيئاً عن الجامعة[٦٠]

أتينا بهاتين الوجهتين المتناقضتين وأشرنا الى اوجه صوابها او عدمه اشارة سطحية تسهيلاً لدرسها فيما بعد بمعارضة جميع النسخ وفحصها كلمة كلمة اذ لا سبيل الى تقرير هذا الامر الا على هذه الطريقة العلمية .

ونتيجة هذا الفصل ان زيداً كان رئيس الجماعة وان المقدسي كان مصنف رسائلهم وان عدد هذه الرسائل لا يعرف بالضبط الان .

---

(٥٦) القفطي — اخبار الحكماء — ص ٥٨

(٥٧) منه ايضاً ص ٥٩

(٥٨) Sup. to the ar. Manus. in the Brit. Mus. - Charles Rieu, No. 708

(٥٩) Cat. Manus. ar. - Bibliotheque Nationale - 1884—1924 No. 6647-8

(٦٠) كشف الظنون — ج ١ ص ٥٧٠ — ١

الفصل الرابع

بحث في غاية اخوان الصفا وفلسفتهم

جاء في الرسائل ان الفلسفة اشرف الصنائع البشرية بعد النبوّة[١] « اولها محبة العلوم واوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الانسانية واخرها القول والعمل بما يوافق العلم[٢] » ومعنى هذا التشبه معرفة حقائق الموجودات واعتقاد الآراء الصحيحة والتخلق بالاخلاق الجميلة ومراعاة الاعمال الصالحة[٣] . واهم من هذا كله انها « التشبه بالاله بحسب طاقة الانسان[٤] » . ولم يكن من فرق بين الفلسفة والحكمة فهذا التحديد الاخير ورد كتعريف للحكمة كما ورد تعريفاً للفلسفة[٥] »

ولا تدعى الرسائل انها اتت بالشيء الجديد « فهذا الامر الذي قد ندبنا اليه اخواننا وحثنا عليه اصدقاءنا ليس هو برأي مستحدث ولا مذهب محدث بل هو رأي قديم قد سبق اليه الحكماء والفلاسفة والفضلاء » وهو مذهب الانبياء وخلفائهم والائمة لا بل هو « ملة ابراهيم » التي يشير اليها القرآن[٦] . ولا غاية لهذا المذهب سوى بناء « مدينة فاضلة روحانية » اساسها تقوى الله والصدق والوفاء والامانة[٧]

---

(١) الرسائل ج ١ ص ١٣٠ (الرسالة ١٣) (٢) الرسائل ج ١ ص ٢٢
(٣) « « ٢ « ٣٣٠ (٤) الرسائل ج ١ ص ١٠٢ قابل الرسالة ١٣ ص ١٣٠ ج ٢ ص ٣٣٠ و ٣٣٦ و ج ٣ ص ١٤٠ و ٣٧١ — ٢ و ٤٠٦ (٥) ج ٣ ص ١٦٠ (٦) الرسائل ج ٤ ص ١٨٢ (٧) ج ٤ ص ٢١١ — ٢١٢

وان كان لهذا المذهب من امل في الانتشار فكل امله في الشباب لا في « المشايخ الهرمة[٨] » .

وقد زعموا ان الشريعة الاسلامية كاملة تامة « ما فرطنا في الكتاب من شيء[٩] » والاسلام خير دين دان به المتألهون[١٠] وقد زعم القفطي انهم قالوا « ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة .... وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال[١١] » . ولا ارى لهذا من تعليل سوى ان القوم قد رأوا ما علق بالدين من الاوهام ووقفوا على سقوط القادة والعلماء . فقلبوا هذه الحالات على وجوهها فرأوا في الفلسفة الدواء الشافي ولكن كيف السبيل والعامة تناهضهم وتناصبهم العداء ورجال الدولة يهددونهم بالسجن والتعذيب ؟ لا سبيل الا بالمجاهرة بمضمون الآية « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . والمطلع على رسائلهم لا يفهم الا ان القوم قد عنوا بهذه الآية تلبيس الامر على عامة الناس — الم يكونوا من القائلين بالتستر والكتمان والتقية ؟

ومهما يكن من شيء فلا شك في ان الاخوان رموا الى مزج الدين بالفلسفة والتوفيق ما بين العقل والنقل . وهم من هذه الناحية اتباع الكندي والفارابي اللذين سعيا للتوفيق ما بين فلسفتي افلاطون وارسطو من جهة والاسلام من الجهة الاخرى ومن يقرأ الرسائل في ضوء هذه الملاحظة لا شك واجد ان الفلسفة المثبوتة فيها فيثاغورية جديدة وافلاطونية جديدة تقول بحدوث العالم وتهاجم نظرية الازل الارسطوطالية ولعل في هذا مجاراة للرأي العام .

وفي الرسالة الاولى يعترف كاتبها ان عملهم في درس الفلسفة والعلوم هو ما كان يفعله قبلهم « الحكماء الفيثاغوريين[١٢] » وفيثاغورس هذا كان اول من سمع « نغمات

---

(٨) الرسائل ج ٤ ص ١٣١ (٩) ج ٣ ص ٤١٢ — ٤١٣ (١٠) ج ٤ ص ٢٨٨
(١١) القفطي ص ٥٩ (١٢) الرسائل ج ١ ص ٢٢ قابل مع ص ٣٨

حركات الافلاك والكواكب فاستخرج بجودة فكره اصول الموسيقى [١٣]» . والرسالة الاولى من القسم الثالث من الرسائل هي «مبادئ الموجودات العقلية على رأي الفيثاغوريين» وفيها قال المؤلف ان فيثاغورس قال « طبيعة الموجودات متوقفة على طبيعة العدد [١٤]» وقال في موضع آخر ايضاً « اما الفيثاغوريين [وهو مذهب اخواننا] فجمعوا كل هذه وجعلوها جامعة لاقوال الحكماء في العدد [١٥] » . واخيراً جاء ان فيثاغورس هذا « فيثاغورث » — رجل حكيم من اهل حران [١٦] . فاذا تذكرنا ان معرفة العرب بفلاسفة اليونان كانت عن طريق مدارس الرها وحران واذا تذكرنا ان تلك المدارس كثيراً ما كانت تدعى نسبة فلاسفة اليونان اليها حتى ان افلاطون نفسه ظهر بصورة راهب نصراني — اذا تذكرنا ذلك هان علينا ان نعالل هذا الخطأ في نسبة فيثاغورس الى حران .

اما القول بحدوث العالم فقد شدد الاخوان على اهميته كثيراً « فالعالم محدث مخترع كائن بعد ان لم يكن » وان الله قال له كن فكان [١٧] . وهذه الفكرة تمثل الدور الذي كان المسلمون فيه يكرهون ارسطو ويرون في فلسفته خراب الشريعة الى ان قام الفارابي والكندي للتوفيق بين وجهتي النظر

من هذين المثلين — الاعتماد على الفيثاغوريين والفلسفة الافلاطونية الجديدة التي لا دخل لها بارسطو — ومن محتويات الرسائل على العموم ومن معرفتنا بما ترجم من علوم قبيل تأليف الرسائل — ومن قول القفطي « هؤلاء جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في انواع [الحكمة الاولى] » = ناخذ ان الجماعة اعتمدت في كتابة معظم رسائلها على فلسفة اليونان التي سبقت عهد ارسطو وقليلة هي الآراء الارسطوطالية المثبوتة في رسائل الاخوان

---

(١٣) الرسائل ج ١ ص ١٠٢ (١٤) ج ٣ ص ٢ (١٥) ج ٣ ص ١٦
(١٦) الرسائل ج ٣ ص ١٦ (١٧) ج ٢ ص ٥٩ و ٨٥ و ٣٢٨ و ج ٣ ص ١٠٧ ج ٤ ص ٣٧٤ — ٣٧٨

والآن علينا ان نبين المصادر التي اعتمد عليها الاخوان في وضع تعاليمهم وفلسفتهم فمذهبهم كما علمنا هو النظر في جميع الموجودات والبحث عن مباديها وعن علة وجودها لا يعادون علماً ولا ينصرفون عن مذهب لانهم كانوا يعلمون انه « لا يصلح للقاء الله الا المهذبون بالتأديب الشرعي والرياضات الفلسفية[١٨] » وان لا مذهب او فرقة تحتكر الحقيقة العامة . ولذلك فقد اهتموا ابرهان عدم وجود التناقض بين الفلسفة والدين من حيث المبادئ العامة . وما التناقض الظاهر الا في الطرق المؤدية الى السعادة الكبرى وهي الاتصال بالله[١٩]

ومصادر علومهم كما جاء في الرسائل اربعة[٢٠] : —

اولاً — الكتب المنسوبة الى الحكماء الفلاسفة من الرياضيات والطبيعيات

ثانياً — الكتب المنزلة جميعها — التوراة والانجيل والقرآن .

ثالثاً — الكتب الطبيعية — في الكون عموماً

رابعاً — الكتب الالهية التي لا يمسها الا المطهرون « وهي جواهر النفوس » .

هذا ما تقوله الرسائل وهو لا يشفي الغليل فنحن لا نعرف اسماء جميع الفلاسفة من اليونان والعرب الذين اعتمد عليهم مصنف الرسائل ولسنا نعرف مقدار الاثر الفارسي هل هو من جهة الشيعة ام هو من جهة الوثنية القديمة او كليهما . ولسنا نعرف مقدار ما اخذوه عن النصارى ولا مقدار ما تسرب اليهم من الهند . والحق ان

---

(١٨) ج ١ ص ١٣٠ (١٩) ج ٢ ص ٣٣٠ (٢٠) ج ٤ ص ١٢٦

فلسفتهم تستغرق هذه العوامل جميعها ٠ الا ان العامل الرئيسي الذي لاشك في اسبقيته وخطورة شأنه هو الاثر اليوناني

ففلسفة الفيثاغورية الجديدة امدت الاخوان بنظرياتهم في العدد وتأثيره السحري في حياة الانسان والقول بالرموز والمعميات وفلسفة الافلاطونية الجديدة امدتهم بنظرية « الفيض » التي هي كل الرسائل ٠ وسقراط امدهم بمثل العقل والتضحية وافلاطون بخلود النفس وخلق العالم ٠ والنصرانية امدتهم بعامل الحب والرفق وصاحب المسيح ذكرهم بموت سقراط ٠ ويقول لان بول[٢١] ان ما كتبوه عن المسيح هو اغنى نص عن حياته في اداب اللغة العربية ٠جاء في الرسائل « ومن الآراء الفاسدة ايضاً رأي من يرى ويعتقد بان الله الرحيم الرؤوف الحنان يعذب الكفار والعصاة في خندق من النار غيظاً عليهم وحنقاً ٠٠٠٠ واعلم يا اخي بان هذا الرأي يسيء ظن صاحبه بربه ٠ ويعتقد فيه قلة الرحمة وشدة القساوة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[٢٢] »

وقد كان كرههم للجسد وتبشرهم بفناءه وتحبيذهم ما يفعله الهنود من حرق الاجسام من الاعتقادات التي دانوا بها والتي تسربت اليهم عن طريق الهند كما تسرب اليهم عن طريق فارس رأي يشبه النرفانا (Nirvana) البوذية الشمولية[٢٣] اما القول بالامام وعصمته والتكتم في الاجتماعات فمن مبادئ الشيعة الباطنية والاسماعيلية والقرامطة المتابسة بفلسفة الفرس ولا يغيب عن ذهن كل مطلع على الفلسفة العربية الاسلامية ان اثر ارسطو مقصور على طبيعياته ومنطقه واثر بطليموس مقصور على التاريخ الطبيعي وجالينوس في علم الانسان (Anthropology) والطب ٠

هذا اظهر ما نجده في الرسائل من آثار اجنبية

---

(٢١) Studies in a Mosque, P. 196

(٢٢) الرسائل ج ٤ ص ٨٩

(٢٣) Lane-Pool, op. cit. P. 188

ولسنا ندري فلعل الاخوان لم يستخدموا الاسلام ولم يقروا بسلطانه الا لاغراضهم الخاصة . فمصنف الرسائل لم يترك آية او حديثاً يشتم منها رائحة مقاربة للنظريات اليونانية وغيرها الا واستعمله لغرضه وكثيراً ما يكون الفرق بين بين الاثنين ولسنا ندري فهذه الجماعة اذا صرفنا النظر عن قولها بالامام فان مثلها العليا غير اسلامية . فهي تعبد سقراط وتبجل المسيح اكثر ما تفعل عند الكلام على محمد[٢٤] « الحكمة على المذهب السقراطي والتصوف والزهد على المنهج المسيحي »

واما اثر الاسلام على هذه الجماعة فمقصور في شرعنا على طريق الشيعة والقرآن والفلاسفة الاول والادباء الكبار الذين سبقوا عهد تأليف الرسائل . ويكاد يكون معظم ما اقتبسته الرسائل مقصوراً على آداب القرن الثامن للميلاد . وقلما يشير مصنف الرسائل الى هؤلاء باسمائهم فهو يقتبس عن الجاحظ ويذكر كتاب الحيوان ويقتبس عن مدرسة الكندي ولا يذكره بالاسم

وحبذا لو يتسع المقام للتدليل على جميع هذه الوجوه باستخلاص الشواهد الفلسفية من الرسائل ومن مؤلفات عصرها والعصور السابقة . واملنا نعود الى تتميم هذه النقطة في فرصة اخرى . ولكننا نتركها الان لانها قد تعتبر درساً خاصاً خارجاً عن نطاق هذه الرسالة .

وكان الاخوان يزعمون ان في هذه العلوم خلاص النفس من ورطتها الهيولانية وبالتالي عروجها الى خالقها في السماء . وقد اوصوا للتوصل الى هذا الهدف بالرضوخ للناموس اي القانون الالهي وبالالتجاء الى محبة الله واطفه طلباً لهدوء النفس وراحة القلب واخيراً المشاهدة والاتصال . وفي هذه النواحي كما في غيرها يظهر اثر التصوف الاسلامي في فلسفة هذه الجماعة وينبغي للانسان ان يعرف — ان يعرف نفسه وان يعمل على اصلاحها . وهذا الاصلاح منوط بطبيعة المرء الاخلاقية وهذه بدورها منوطة باربعة عوامل : —

---

(٢٤) الرسائل ج ٢ ص ٣١٥

اولا — التركيب الجسماني — واساسه الاركان الاربعة — التراب والماء والهواء والنار : فمتى زادت نسبة التراب في جسمه قسي وفسق . ومتى غلبت نسبة الماء في تكوينه شرف ولان وهكذا

ثانياً — المناخ — فنحن نرى ان سكان الشمال عادة عندهم من الشجاعة مقداراً يفوق ما عند سكان الجنوب

ثالثاً — التربية — وهي مرانة النفس واعدادها لتقبل الفضائل

رابعاً — تأثير الكواكب[٢٥] — وهو اهم هذه العوامل لان ما سبق جميعه يتوقف على هذا العامل الذي تكرر ذكر اهميته في غير موضع من الرسائل .

كل هذا صحيح بالنظر الى طبيعتنا الارضية — لكن النفس لها مقدرة على التغلب على هذه الطبيعة والتوصل الى الاطمئنان الفكري وحرية الاختيار التي يتلوها ما يسمى عادة في درس الفلسفة « التروي العقلي » (Mental deliberation) ونهاية النهاية مرتبة الناموس . وهكذا فللوصول الى هذه المرتبة — مرتبة الابرار والملائكة والانبياء — يجب ان يتخلق المريد بالصبر والاحتمال حتى يتخلص من شهواته وحواسه وليس بين الناس من لا تنقصه ولو بعض هذه الخلال التي لا تجتمع الا في الانسان « الفاضل الكامل[٢٦] »

في هذه الدورة يظهر الاثر الافلاطوني والرواقي . فالانسان الكامل هذا شبيه جداً بالانموذج الافلاطوني (Platonic Idea)[٢٧] او بالحكيم الذي قال به الرواقيون المشهورون في تاريخ الفلسفة اليونانية المتأخرة (The wise man of the stoics) . وفيها ايضاً يظهر اثر التصوف الاسلامي الحامل بين طياته شتى العناصر الاسلامية وغير الاسلامية .

---

(٢٥) الرسائل ج ١ ص ٧١ و ٧٤ و ٨٠ و ٨٢ و ٨٣ قابل القفطي ص ٩١

(٢٦) الرسائل ج ٤ ص ٣٧ س ١٨ (٢٧) الانموذج هي ترجمة Idea ولم نترجمها « براي او فكر » للالتباس — وربما كانت كلمة « الصورة المثلية » قريبة من المعنى الاصلي . ولا نترجم « بمثل اعلى » قط

بقي علينا امر واحد ونفرغ من شرح فلسفة الاخوان الا وهو نظرية الفيض او حياة الروح منذ صدورها عن الله الى حلولها في الجسد ثم خروجها منه ورجوعها الى خالقها ثانية . وعلينا قبل كل شيء ان نبين ما نعني بقولنا « فلسفة الاخوان » فنحن لم نعرف لهم فلسفة خاصة بهم . ولعل اظهر ما عندهم هو الصداقة الروحية التي قوامها اعتقادهم بان لهم نفساً واحدة حتى اـــ نظرية الفيض هذه المعروفة في تاريخ الفلسفة بـ (The doctrine of emanation) ليست بالحديثة . ومهما يكن من شيء فهذه النظرية في شرعنا هي كل الرسائل وهي جوهر فلسفتها وكل الرسائل وجدت لغاية واحدة وهي تهذيب النفس حتى تعرف كنهها فتسير في درجات هذه النظرية الآنفة الذكر

وفي رأي الاخوان ان الامور الروحانية — اي ما فوق الامور الطبيعية — على اربعة مراتب :

اولاً — الله	The Absolute Reality
ثانياً — العقل الكلي الفعال	The Universal Mind
ثالثاً — النفس الكلية	〃 〃 Soul
رابعاً — الهيولى الاولى	The Primal Matter

وقد ابدع الله من « نور وحدانيته » جوهراً بسيطاً يقال له « العقل الفعال » « كما انشأ الاثنين من الواحد بالتكرار » . ثم انشأ « النفس الكلية » من نور العقل . ثم انشأ « الهيولى » من حركة النفس ومن الهيولى انشأ سائر المخلوقات[٢٨] . وهذا العالم « من اعلى الفلك المحيط الى منتهى مركز الارض وحدة لها جسم واحد تسري فيها نفس واحدة كسريان نفس الانسان الواحد في جميع اجزاء جسده[٢٩] » وهذا نحو من تأثير فلسفة الشمول (Pantheism) الصوفية الاسلامية واليونانية الفلسفية

ولا اختلاف بين الناس الا بالصورة[٣٠] (شكل يقبله الجوهر) لا بالهيولى[٣١]

---

(٢٨) ج ١ ص ٢٧ قابل ١٠ على ص ٧٥ (٢٩) الرسائل ج ٢ ص ١٦

(٣٠) Form (٣١) Matter

(جوهر قابل للصورة)[٣٢] واما الافعال فكلها للنفس وما الجسم منها الا بمنزلة الآلات من الصانع[٣٣] . وكما ان الجسد خادم للنفس (وهي كما جاء في الرسائل بمعنى الروح تماماً) فهكذا النفس الجزئية خادمة للنفس الكلية[٣٤] فابتدأت هذه النفس الكلية تفيض في الجسم الكلي وتنبت فيه شارعة من اعلى فلك المحيط ثم الافلاك والكواكب فالاركان الاربعة حتى بلغت منتهى مركز الارض (العالم) .
وقد اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . واول عهد الانسان بالوجود نطفة من ماء مهين تودع في قرار مكين الى ان تحل فيه نفس جزئية منبثة من تلك النفس الكلية الفائضة على هذا العالم (الولادة) .

وحلول هذه الروح في الجنين يعبر عنه عادة بان الله ينفخ بالجسد من روحه[٣٥]

جاء في الطواسين للحلاج ما يأتي[٣٦]

علم النبوة مصباح من النور معان الوحي في مشكات[٣٧] مامور
فالله ينفخ الروح في جلدي لخاطر وينفخ اسرافيل في الصور
اذا تجلى لروحي ان يكلمني رأيت في عيني موسى على الطور

بعد الولادة يأخذ جسد الانسان بالنمو وقوته بالازدياد الى نهاية اربع سنوات يكون بعدها صالحاً للتعلم بواسطة الحواس والغرائز بالتصبر والتدبر ورسائل اخوان الصفا من غرضها ان تكون مادة لهذا الانسان يأخذ منها علومه ومعارفه حتى تظهر اخلاقه فيعرف نفسه . ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ولذلك فهي مرتبة ترتيباً عقلياً تبدأ من المحسوس الى المعقول فالروحي واخيراً الالهي[٣٨]

واما الغاية من ربط النفس بالجسد فكمال الهيولى وتشبهها بالكل (الله)[٣٩] .

---

(٣٢) الرسائل ج ٢ ص ٢ (٣٣) الرسائل ج ٢ ص ٤٣ و ٨٨ (٣٤) الرسائل ج ٢ ص ٨٢ (٣٥) ج ٢ ص ٢٤٧ و ج ٤ ص ١٠٧ - ١٠٨ (٣٦) الطواسين ص ١٣٤ (٣٧) كذا بالاصل (٣٨) الرسائل ج ٣ ص ٥ — ٦ (٣٩) الرسائل ج ٢ ص ٣٣٦ و ج ٣ ص ٦

فهي بعد خروجها من حد القوة الى حد الفعل (حلولها في الجسد) تأخذ في استكمال صورتها عن طريق الحواس بما تكتسبه من العلوم والفضائل وتهذيب الاخلاق[٤٠] ، على النحو الآتي :

بعد مضي الاربع سنوات الاولى تحل القوة الناطقة المعبرة عن المحسوسات « وتستأنف عملها الى تمام خمس عشر — كذا بالاصل — سنة » فتحل القوة العاقلة لمعاني تلك المحسوسات « وتستأنف به الى تمام ثلاثين سنة » تحل عليه القوة الحكيمة المستبصرة لمعاني المعقولات وتستأنف به تدبيراً الى تمام اربعين سنة فتوضع فيه القوة الملكية المؤيدة وتستأنف به الى تمام خمسين سنة . فتوضع فيه القوة الناموسية الممهدة للمعاد ويستأنف به الى آخر العمر . اما من تمت نفسه قبل مفارقة الجسد فيعرج به الى الملأ الاعلى واما من لم تستكمل فيه فيرد الى اسفل سافلين[٤١]

حتى اذا كان الموت عادت الروح الى مصدرها (الله) . وما هذا الموت في رأي الاخوان الا ولادة ثانية[٤٢] مصداقا للقول الذي نقلوه عن المسيح « من لم يولد ولادتين لا يلج في ملكوت السماء » وذلك لان النفس تخلص من سجنها الجسدي (الناسوت) وتقصد مقرها الابدي (اللاهوت) . وهكذا فلما اراد الله ان يتوفى المسيح ويرفعه اليه اجتمع معه حواريوه في بيت المقدس فاوصاهم ان يوفوا بعهده ويبشروا بظهوره ثانية ولا ييئسوا اذا هو صلب فما هذا الناسوت الا غطاء يتلبس به اللاهوت[٤٣]

ويقول ماسنيون ان القول باللاهوت والناسوت على هذه الصورة اخذه المتصوف المشهور بالحلاج عن نصارى السريان القائلين بان للمسيح طبيعتين : انسانية جاءته عن طريق الحلول واخرى ازلية غير مخلوقة[٤٤]

---

(٤٠) الرسائل ج ٢ ص ٣١٣ (٤١) الرسائل ج ٣ ص ١٢ = ١٣ (٤٢) الرسائل ج ٢ ص ٢٨٨ (٤٣) الرسائل ج ٤ ص ٨٤ و ١١٦ = ١١٧

(٤٤) L. Massignon, Touasin, PP. 130—131

سبحان من اظهر ناسوته　　سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهراً　　في صورة الاكل والشارب
حتى لقد عاينهُ خلقهُ　　كلحظة الحاجب بالحاجب

والخلاصة ان كل ما في الرسائل تفسير وشرح وتمهيد لنظرية الصدور هذه - وهي بمقارنتها مع مصطلحات الفلسفة العصرية الحاضرة مكونة من دورتين :
(١) بروز التعدد من التوحيد او درس الكون (Macrocosm) و (٢) الرجوع من التعدد الى التوحيد او درس الانسان Microcosm ولعل اظهر ما في هذه النظرية امتزاج التوحيد السامي في فلسفته الافلاطونية الجديدة[٤٥] وطبعها بعد هذا بطابع شمولي مثالي Pantheistic Idealism

---

(٤٥) Browne; op. cit, P. 381

الفصل الخامس

بحث في نظام جماعة اخوان الصفا

أجتمع افراد هذه الجماعة على الطهارة والقدس والتضحية و تألفوا بالعشرة وتصافوا بالصداقة ثم « وضعوا بينهم مذهبا زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله . وذلك انهم قالوا ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . . . [1]

وقالوا ان الحكماء قبل عهد التوراة والانجيل والقرآن قد بحثوا في النفس وصنفوا الكتب الفلسفية فيها ولكن لما « نقلها من لغة الى لغة من لم يكن فهم معانيها ولا عرف أغراض مؤلفيها انغلقت على الناظرين في تلك الكتب فهم معانيها[2] » — فهذان الامران — تدنّس الشريعة وانغلاق معاني الفلسفة كانا على ما يظهر الدافع الى تأليف الرسائل .

على ان غرضها اعمق من هذا واعرق . فالجماعة كما قلنا سابقا لم تقم الا كرد

(١) القفطي — اخبار الحكماء — ص ٥٩

(٢) الرسائل ج ١ ص ٦٣ ، ج ٢ ص ١٣

فهل لما انتشر في ذلك العصر من سوء خلق وفساد حكم وفوق كل شيء فقدان الصلة ما بين الافراد والجماعات . وعلى هذا فغرض الرسائل تطهير نفوس اعضاء الجماعة ومن يلوذ بها من اوحال هذا العالم لتصفو وتنال الحياة الابدية ولا غرو ان كان مصنف الرسائل صادقا في قوله إذ ان الغرض الاقصى من تعاليم الاخوان « اصلاح جواهر النفوس وتهذيب اخلاقها وتتميمها وتكميلها للبقاء في دار الاخرة[٣] » وذلك بنجاتها من بحر الهيولى واسر الطبيعة[٤]

واظنني على صواب في حكمي ان القوم كانوا يدينون بالرأي اليوناني المشهور الذي يذهب الى ان المعرفة هي خير طريق للتخلص من الشرور والوصول الى راحة النفس والاطمئنان الفكري[٥] . ولما كان « الانسان الواحد لا يقدر ان يعيش وحده الا عيشاً نكداً لانه محتاج الى طيب العيش .. . ينبغي لك (ايها الاخ البار الرحيم) ان تتيقن بانك لا تقدر ان تنجو وحدك مما وقعت فيه من محنة هذه الدنيا » لانك محتاج «الى معاونة اخوان لك نصحاء واصدقاء فضلاء متبصرين بامر الدين علماء بحقائق طريق الامور ليعرفوك طريق الآخرة وكيفية الوصول اليها والنجاة من الورطة التي وقعنا فيها كانا . .[٦] » ولا سبيل الى ذلك الا بتاسيس « دولة الخير » من العلماء الحكماء الاخيار «الذين يجمعون على رأي واحد ويتفقون على دين واحد ومذهب واحد ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً ان لا يتخاذلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضا ويكونوا كرجل واحد في جميع تدبيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الاخرة »

وكان الاخوان يعتقدون ان لهم نفساً واحدة ولو كانت حالة في اجسام متفرقة فما هذه الاجسام الا « صدفة » تقي « الدرة » في داخلها .[٧] وزادوا على ذلك

(٣) الرسائل ج ١ (الرسالة ٦) ص ١٣

(٤) الرسائل ج ١ (الرسالة ٨) ص ٣١ ، انظر ايضاً ١٢٠ (رسالة ١١) ، ١٢٦ (رسالة ١٢)

(٥) الرسائل ج ٢ ص ١٣ س ٣-٤ ، ص ٢٠ ، ٢٢٦

(٦) الرسائل ج ١ ص ٥٢ ، ٥٣ (٧) الرسائل ج ١ ص ١٠٤

باعتقادهم انهم كرجل واحد ونفس واحدة[٨] وهذه الصلة الروحية ما بين افراد الجماعة في شرعنا هي قوتها وروحها فلولاها لما راينا من اثار الجماعة شيئاً .

و يكاد لا يكون مجال للريب في ان الجمعية كانت سرية تبشيرية . فالاخ البار الرحيم مامور بان لا يفشي الاسرار[٩] . وهي فوق ذلك تفضح نفسها في الرسائل فعندما اخذ مصنفها ببيان اعيادهم ذكر احدها الذي هو يوم الحزن والكآبة يوم «رجوعنا الى كهف التقية والاستتار[١٠] » فمن هذا ناخذ ان الجماعة اخذت بالتبشير في بادي الامر ولكنها صادفت مقاومة تختلف شدتها وعدمها حتى اضطرت الى الرجوع الى « كهف التقية » . ودليل سريتها ان الشخص لا يقبل في عضويتها الا بعد التجربة والامتحان والمران المتواصل

وقد كان للجماعة دعاة ينشرون افكارهم و يبثون الافكار لتقبل رسائلها والداعي له تمرين خاص اذ عليه يتوقف نجاح الامر وكان يذهب من بلد الى بلد مستتراً متخفيا « وقد راينا ان نجعلك داعيا الينا ودالا علينا ومبشراً بظهور امرنا وانكشاف سرنا من رأيته من اخواننا واهل ملتنا وقد اخذنا لك لمقامك موضعا تسكن فيه وتأوي اليه لا تصل فيه اليك ايدي الظالمين[١١] » ويضيق المقام هنا لو اردنا تعداد جميع الشواهد على ان الجمعية كانت تبشيرية سرية[١٢] »

ولكننا نقف هنا ونتساءل — اذا كانت الجمعية سرية فهل تعدت دعايتها البصرة — وهل تأسست لنا الفروع في بلدان الاسلام ؟

يقول مكدونالد اننا لا نعرف انها انتشرت حتى بغداد ونكاد نكون على يقين انها لم تتجاوز هذه المدينة[١٣] واما نحن فنقول بل انتشرت انتشاراً لم يفطن له اهل ذلك

---

(٨) ج ٤ ص — ١٨٢ س ٣ من الاسفل (٩) الرسائل ج ١ ص ٩٨ ، ج ٤ ص ١٩٣

(١٠) ج ٤ ص ٢٧٩ (١١) ج ٤ ص ٢٦٧

(١٢) فليراجع من اراد التوسع ج ١ ص ١٢٤ ، ٢٤ (الرسالة ٦) ، ج ٢ ص ١٥ ، ٣٤ ، ٢١ ، ٣١٠ ، ج ٤ ص ١١٨ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ١٩٤ — ١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٥ ، ٢٦٧

(١٣) Macdonald, Muslim Theol. p. 168

العصر الا كما نفطن نحن الان الى انتشار الدعايات السرية . فنحن نقرأ في الرسائل دائما في نهاية كل رسالة واحيانا في مختلف فصول الرسائل قوله «وفقك الله ايها الاخ البار الرحيم وايانا وجميع اخواننا حيث كانوا في البلاد سبيل الرشاد ..[١٤]» او ما يقرب من هذا القول . واليك هذه الكلمة الصريحة « واعلم ايها الاخ .... ان لنا اخوانا واصدقاء من كرام الناس متفرقين في البلاد[١٥]»

اما ان يبحث الاخوان في شيء لا وجود له فلا نستطيع فرضه واما ان يكذبوا فنحن نستبعده لان من مبادئهم الامانة والطهر وسلامة الخلق ولا ننكر انهم يقولون بالتقية . ولكن الرسائل رغما عن كل هذا تقول : « شيعتنا واخواننا » المتفرقون في البلاد وسائر من ينسب الينا في احوالهم ومراتبهم على منازل ثلاث :

اولاً — خواص عقلاء متدينون اخيار فضلاء

ثانياً — قوم وسط

ثالثاً — اغبياء اشرار ارديا.

ولكل من هؤلاء وهؤلاء اراء ومذاهب — فاعرفهم ايها الاخ « حتى اذا دخلت مدينة او بلداً من البلدان ولقيت منهم احدا تبينتهم بعلاماتهم وعرفتهم بسيماهم فلقيتهم بالتحية والسلام ... » فمنهم طائفة من اولاد الملوك والامراء والوزراء والعمال (اي الحكام) والكتاب — ومنهم من اولاد الاشراف والدهاقين والتجار — ومنهم من اولاد العلماء والادباء والفقهاء وحملة الدين — ومنهم من اولاد الصناع وامناء الناس . « وقد ندبنا لكل طائفة منها احداً من اخواننا ممن ارتضيناه في بصيرته ومعارفه لينوب عنا في خدمتهم بالقاء النصيحة اليهم ...[١٦]»

ومن هذه الطوائف تجد الاخ الفاضل العالم بامور الديانات واسرار النبوات المتأدب بالرياضيات والفلسفيات كما تجد الاخ الشاك في بقاء الجماعة المتحير فيما يعتقد

---

(١٤) ج ١ ص ٨٣ ، ١٢٤ ، ص ٣٧ (رسالة ٨) ، ١٠٣ ، ١٢٠ ، ج ٢ ص ١٥ ، ٣٢٩ ، ٣٤٥ ، ج ٣ ص ٧٩ (رسالة ٧) ، ج ٤ ص ١٠٤ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢١ ، ١٨٠ ، ٢٨٠

(١٥) الرسائل ج ٤ ص ٢٠٧ (١٦) الرسائل ج ٤ ص ٢٠٧—٢٠٨

من موالاتها وانك لتجد طائفة موقنة ببقاء الجماعة لكنها غافلة عن امرها غير عارفة باسرارها منتظرة لظهور امرها . واخرى مقرة بفضل الجماعة لكنها جاهلة بعلومها غافلة عن اسرارها جاحدة لوجودها منكرة لبقائها . وهناك طائفة ثالثة ينتسبون للاخوان باجسادهم وهم منهم براء بنفوسهم « ويسمون انفسهم بالعلوية وماهم بالعلوية» وهؤلاء « هم اعدا الناس لشيعتنا[١٧] »

ومما يدل على صحة قضية الانتشار ما ذكره القفطي[١٨] من ان ابا حيّان سأل المقدسي عدة اسئلة « في اوقات كثيرة بحضرة الوراقين بباب الطاق » . وقد عرفنا ان باب الطاق هذا في بغداد وانه كان مجمع الشعراء وفيه تباع الكتب وهناك يجلس النساخ وبعض الفلاسفة ورجال الادب والعلم . وعلى هذا فوجود المقدسي هناك يدل على انه كان ينشر الدعوة او يبث الرسائل في الناس اذ يقول القفطي « وبثوها في الوراقين » وهذه الكلمة لكثرة شيوعها على ما يظهر اخذ الكتاب يشيرون اليها فقط اشارة وكان الوراقون يجلسون في هذا المكان باب الطاق كما كان يجلس فيه الشعراء الذين كان يطرقون ابواب الرشيد[١٩]

وانتشار تعاليم الجماعة امر تبرهن عليه طبيعة الرسائل نفسها فهي مكتوبة لاولئك « الاخوان البررة الرحماء» المرشحين لعضوية الجماعة وهي تطالب منهم دوماً التبشير بما فيها من مبادىء وحضور مجالس الاخوان الخاصة وتقبل نصيحتهم وطلب مساعدتهم . « فيل اك ان تصحب اخواناً لك نصحاء واصدقاء كرماء بحضورك في مجالسهم وتنظر في كتبهم لتعرف اعتقادهم وتتخلق باخلاقهم[٢٠] » وهذا المجلس الخاص يجب ان يقوم بتأسيسه الاخوان « حيث كانوا في البلاد[٢١] »

---

(١٧) ج ٤ ص ١٩٥ (١٨) القفطي ص ٦٢

(١٩) لاجل باب الطاق راجع (١) تذكرة الاولياء ص ١٣٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ من الجزء الثاني (٢) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ١٦ — ١٧ ، ج ٦ ص ٦ ، (٣) Le strange ص ١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٧١ ، ٣٢٠

(٢٠) الرسائل ج ٤ ص ١١٨ (٢١) ج ٤ ص ١٢٤

ولعل هذا المجلس وغيره من المجالس المنتظر تأسيسها حيث وجد الاخوان هي نسخة طبق الاصل عن المجلس العام في مدينة البصرة وبهذه المناسبة نقول انه اذا تذكرنا انه من المحتم على الاخوان ان يكون لهم مجلس خاص للمذاكرة في العلوم التي جاءت مختصرة بالرسائل — نقول اذا تذكرنا هذا هان علينا ان نعتقد ما قررناه سابقاً حين قلنا ان الرسائل او قل مادة الرسائل لم تكن سوى « محضر جلسات الجماعة » قام بتحريرها « سكرتيرهم » الممتاز

في هذا المجلس يجتمع الاعضاء في اوقات معلومة لا يدخل عليهم غيرهم يتذاكرون ويتحاورون في الاسرار وخاصة في علم النفس والتنزيل والرياضيات ويجب ان يبذلوا جل عنايتهم بالعلوم الالهية لا يعادون علماً من العلوم ولا يهجرون كتاباً من الكتب

اما اعضاء هذه الجماعة فعلى درجات هي :

اولاً — « الذين نسميهم في مخاطبتنا ورسائلنا اخواننا الابرار الرحماء » ومرتبتهم هي مرتبة ذوي الصنائع في مدينتنا (مدينة روحانية) — وميزتهم صفاء الجوهر وجودة القبول وسرعة العثور « وهي القوة العاقلة الواردة على القوة الناطقة بعد ١٥ سنة من مولد الجسد(٢٢) »

ثانياً — « الذين نسميهم في رسائلنا اخواننا الاخيار والفضلاء » ومرتبتهم هي مرتبة ذوي السياسات وميزتهم سخاء النفس والشفقة والرحمة والتحنن على الاخوان « وهي القوة الحكيمة الواردة على القوة العاقلة بعد ٣٠ سنة من مولد الجسد(٢٣) »

ثالثاً — « الذين نسميهم اخواننا الفضلاء الكرام » ومرتبتهم مرتبة الملوك ذوي السلطان . وميزتهم دفع العناد والخلاف بالرفق واللطف والمداراة « وهي القوة الناموسية الواردة بعد مولد الجسد بأربعين سنة(٢٤) »

---

(٢٢) الرسائل ج ٤ ص ١٣٤ (٢٣) ج ٤ ص ١٣٤ — ١٣٥

(٢٤) الرسائل ج ٤ ص ١٧٥

رابعاً — « اخواننا كلهم في اي مرتبة كانوا » وهي مرتبة التسليم والقبول والتأييد ومشاهدة الحق عياناً « وهي القوة الملكية الواردة بعد خمسين سنة من مولد الجسد[٢٥] »

والآن كيف يقبل المرشح لعضوية هذه الجماعة ؟

تجيبنا الرسائل بانه « ينبغي لاخواننا حيث كانوا في البلاد اذا اراد احدهم ان يتخذ صديقاً (عضواً في الجمعية) مجدداً او أخاً مستأنفاً ان يعتبر احواله ويتعرف اخباره ويجرب اخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الاخوة ام لا ؟ لان في الناس اقوام طباعهم متغايرة خارجية من الاعتدال وعاداتهم ردية مفسدة ومذاهبهم مختلفة جائرة [٢٦] »

« وينبغي لك اذا اردت ان تتخذ صديقاً او أخاً ان تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والارضين الطيبة التربة للزرع والغرس وكما ينتقدون (كذا) ابناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك والامتعة التي يشترونها . واعلم بان الخطب في اتخاذ الاخوان أجل واعظم خطراً من هذه كلها لان اخوان الصدق هم الاعوان على امور الدين والدنيا جميعاً وهم أعز من الكبريت الاحمر واذا وجدت منهم واحداً فتمسك به فانه قرة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة لان اخوان الصدق نصرة على دفع الاعداء وزين عند الاخلاء

---

(٢٥) الرسائل ج ٤ ص ١٣٥ (٢٦) الرسائل ج ٤ ص ١٢٥

« فاذا أسعدك الله يا أخي بمن هذه صفته فابذل له نفسك ومالك ... واودعه سرك وشاوره في أمرك وداو برؤيته عينك واجعل النسك اذا غاب عنك ذكره والفكر في امره وان هفا هفوة فاغفر له وان زل زلة فعفرها عنده ولا توحشه فيخاف من حقدك ... فان ذلك اسلم لوده وادوم لاخائه[٢٧] »

والرسائل تحذر الاخوان من المظاهر « من غير معرفة بالبواطن » والصداقة لا تتم بين مختلفين بالطبع لان الضدين لا يجتمعان[٢٨] وهذا ما يحدث في امور الصداقة الدنيوية التي لا محالة زائلة . وذلك لان الصداقة الدنيوية لا تكون الا لسبب فاذا انقطع ذلك السبب بطلت تلك الصداقة اما صداقة اخوان الصفا تلك الصداقة الروحية فدائمة الى الابد وذلك لانها « ليست خارجة من ذاتهم » بل من الذات الكلية — ذات الله[٢٩]

حتى اذا ما قُبل العضو في زمرتهم وحضر المجلس « كأخ مستجيب مستحدث» قرأ أحدهم عليهم الخطبة التالية « اعلموا ايها الاخوان ايدكم الله وايانا بروح منه وهداكم للحق وجعلكم من اتباعه وسهل لكم سبيل الخير وارشدكم الى معرفة اهله وعصمكم من الشر وجنبكم صحبة اهله وحرسكم من غرور الشيطان ووقاكم جوار السلطان ونكبات الزمان ونوائب الحدثان . ووفقكم لقبول نصيحة الاخوان انه ودود منان

« واعلموا ان كل دولة لها وقت منه تبدي ولها غاية اليها ترتقي وحد اليه تنتهي . واذا بلغت الى اقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها اخذت في الانحطاط والنقصان وبدا في اهلها الشؤم والخذلان واستأنف في الاخرى النشاط والقوة والظهور والانبساط . وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد ويضعف ذلك وينقص الى ان يضمحل الاول المتقدم ويتمكن الجائي المتأخر ... وهذا حكم اهل الزمان في دولة

---

(٢٧) الرسائل ج ٤ ص ١٢٦

(٢٨) ج ٤ ص ١٢٧ (٢٩) ج ٤ ص ١٢٨

الخير ودولة الشر ... وتلك الايام نداولها بين الناس (الآية) وقد ترون ايها الاخوان ايدكم الله وايانا بروح منه أنه قد تناهت قوة اهل الشر وكثرت افعالهم في هذا العالم في هذا الزمان وليس بعد التناهي في الزيادة الا الانحطاط والنقصان[٣٠]

قرأنا هذه الاجزاء من الخطبة بامعان كما قرأنا سائر اجزائها الاخرى فساءلنا انفسنا هذه الاسئلة

(١) من هو مؤلف هذه الخطبة ؟ اذ يظهر من عبارتها المسجعة انها تخالف اسلوب الرسائل العادي البسيط فربما يكون قد اشترك في وضعها غير واحد او ان الجماعة اقرتها بعد التحريف والتعديل والا فلماذا يشير اليها مصنف الرسائل كشيء «موجود» على كل المجالس في كل البلدان ان تتلوه في الوقت المعين

(٢) من هو الذي يتلو هذه الخطبة ؟ لا يمكن ان يتلوها اكثر من واحد في جلسة واحدة فلا بد من ان يتلوها احد الافراد فمن هو ؟ هو عادة سكرتير الجمعية او رئيسها او احد رجالها المشهورين . وربما كانت تتلى هذه الخطبة بأمر من الرئيس

(٣) ما هي عقائد الجمعية السياسية ؟ هل تنبأت بسقوط الدولة العباسية وهل كانت تنتظر ذلك لكي يفوز آل البيت بالخلافة . ذلك ما نرجحه من مناصرة الجماعة للتشيع وحبهم للأئمة

الفصل السادس

بحث في أثر الجماعة على الفكر الاسلامي

يقول الاستاذ مكدونالد ان الجماعة كان ينقصها الحيوية والفاعلية . اما الخطط التي رتبتها الرسائل للاجتماعات والمداولة (وغاب عنه ان يقول والتبشير ايضاً) بقيت حبراً على ورق . وقد ذهبت الجمعية بموت اعضائها المؤسسين الذي لم يتجاوزوا

(٣٠) الرسائل — ج ٤ ص ٢٢٢—٢٢٣

العشرة عدداً [1] . ويقول بروكلمان [2] اننا لا نعرف انها انتشرت الى ما وراء البصرة لانه لم يكن عليها رئيس مقتدر ولا برهان على انها نفذت برنامجها الذي سنته في الرسائل

اما الحيوية والفاعلية فأمر لا نوافق الاستاذ مكدونالد على رأيه فيهما فالرابطة كانت سرية تبشيرية وانتشارها محقق بالاعتماد على شهادة الرسائل . ولا سبيل الى تكذيب هذه الشهادة بدليل اهتمام رجال الدولة والمفكرين الممتازين في ذلك العصر بأمر هذه الجماعة وبدليل تنقل اعضائها في بلدان الاسلام فهذا المقدسي وهذا زيد كلاهما ذهبا الى بغداد للتبشير او « لبث الرسائل في الوراقين » . ولا نعتقد انها بقيت حبراً على ورق الدعاية القوية والاقبال الهائل الذي لاقته الرسائل كما اننا لا نعتقد ان الاعضاء لم يتجاوزوا العشرة عدداً لما بيناه ايضاً من الشواهد

والحق ان انتشار الجماعة وخطورة تأثيرها على العالم الاسلامي يتجليان باجلى مظهر بما لاقته رسائلهم من الاقبال والاهتمام واهل العالم الاسلامي في ذلك العهد لم يفهم تعاليمها حق الفهم او لعل تلك التعاليم لم تجد في أعين الناس من الاعتبار الذي تستحق . وهذا يفسر الشك والريبة اللذان يلتصقان بالجماعة ورسائلهم فقد كثر الشاكون في نجاحها والمتريثون في مناصرتها والآخذون عليها تسامحها في مزج الشريعة بالفلسفة

ومهما يكن من شيء فهذه الرسائل لا تدّعى التعمق والتوسع فما هي الا مختصر للفلسفة من الافلاطونية الجديدة والتصوّف الاسلامي والعلوم الطبيعية وعقائد المعتزلة ونظرية فيثاغورس في العدد وكثير من آراء البراهمة والفرس والنصارى — كل ذلك ممزوج فيه الادب بالدين والدين بالفلسفة

قال مصنف الرسائل « ونحن قد أخذنا معانيها — الفلسفة والحكمة — واقصى

---

(1) Muslim Theol. p. 168 (2) Ges. der ar. Lit. Vol. I, 213

اغراض واضميا واوردناها بأوجز ما يمكن من الاختصار في اثنتين وخمسين رسالة[٣]»
وقال ايضاً « عملنا هذه الرسائل واوجزنا القول فيها شبه المدخل والمقدمات لكي
يقرب على المتعلمين فهمها و يسهل على المبتدين النظر فيها[٤]» . وهذا يثبت ان الرسائل
وضعت « للاخوان الرحماء البررة[٥] » الذين هم اول المراتب في نظام الجماعة . وقال
ايضاً « انما نذكر من كل علم شبه المقدمة والمدخل . . . ليكون تحريضاً لاخواننا[٦]»

هذا بعض ما ورد في الرسائل برهاناً على ان « معلوماتها اولية » ليس الا . وقد
وجدنا ان القفطي[٧] يدعم هذا الزعم بقوله « وهي (الرسائل) مقالات مشوقات
غير مستقصاة ولا ظاهرة الادلة والاحتجاج وكأنها للتنبيه والايماء الى المقصود »
وقال ابو حيان التوحيدي[٨] « وهي مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية »
وقال ابو سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام[٩] « تعبوا (اخوان الصفا) وما
أغنوا ونصبوا وما اجدوا وحاموا وما وردوا وغنوا فما اطربوا » وقال حاجي
خليفة[١٠] في وصفه كتاب عنوانه « مجمل الحكمة » — « فارسي في حكمة الرياضيات
والمنطقيات والطبيعيات والالهيات واكثره رموز انتخبه رجل من الخراسانيين بحذف
الحشو وايضاح الرمز كما في رسائل اخوان الصفا »

وقد وافق على ذلك اكثر من كتب في اخوان الصفا من المستشرقين مثل
فلوغل[١١] ومكدونالد[١٢] ولان بول[١٣] و برن[١٤] وبروكلمن[١٥] ونيكلسون[١٦] .

---

(٣) الرسائل ج ١ ص ٤٣
(٤) الرسائل ج ٢ ص ١٣ ، ٣٦٣ ، ج ٣ ص ٦٣
(٥) ج ٤ ص ١٢٠ ، ص ١٠ (٦) ج ٤ ص ٣٣٥
(٧) القفطي ص ٥٨ (٨) القفطي ص ٦٠
(٩) القفطي ص ٦٠ (١٠) كشف الظنون ج ١ ص ٧٥٠—١
(١١) Z. D. M. G. Vol XIII, P. 3—6 (١٢) Muslim Theol. p. 168
(١٣) Stud-in a Mosque, 190 (١٤) Lit. Hist, vol, I p. 381
(١٥) Ges. des. ar. Lit. vol. I, p. 213 (١٦) Lit. Hist. p. 370—1

ولعل الاخوان شعروا بهذه الحالة فكرروا القول كما اسلفنا والاعتراف بذلك وعقبوا عليه هكذا « والذي نريد لاخواننا ايدهم الله ان لا يدعوا انهم يعرفون شيئاً من العلوم الا بعد الاحكام له والمعرفة به والتمهر فيه والتجربة له لما نتخوف عليهم من الخطأ والكذب[١٧] » . من اجل هذا فقد حرصوا على ان تكون لغة الرسائل سهلة قريبة المتناول بعيدة عن اسلوب السجع والمحسنات اللفظية والمعنوية . ومع ذلك فقد وقعوا في بعض اغلاط لانهم اهملوا جانب النقد فنسبوا الى ارسطو كتباً ليست من تأليفه[١٨]

فغاية الرسائل اذن انما هي الجمع والتهذيب والايماء والاشارة ولا دافع لذلك الا استحالة جمع العلوم تفصيلاً على تلك الطريقة من جهة واعتقادهم ان الحقيقة كاملة في كل المخلوقات ولا سبب للشطط الا « الفردية » من الجهة الاخرى ولهذا فقد تشددوا في قبول الاخوان الى جماعتهم اذا لم يكن المرشح حائزاً على (خلة) لا توجد في غيركم حتى يساعد اخوانه على اكساب (نفسهم العامة) جميع الخلال السماوية التي انبثت في الكائنات بطريق الصدور Emanation . ولذلك ايضاً قالوا بان اختلاف الناس ناجم عن اختلاف وجهات النظر فالله ارسل روحه الى كل الناس لا فرق بين النصراني والمسلم بين الاسود والابيض واذاً فقد قالوا بان من الواجب على اعضاء جماعتهم ان ينتخبوا الشيء الصالح من جميع المصادر[١٩]

والآن علينا ان نرى ما هو هذا التأثير الذي تركته الجماعة في العالم الاسلامي؟

لم تصلنا تفاصيل ما لاقى به جمهور الناس مبادىء الاخوان ورسائلهم غير اننا لا نعدم وسيلة نتوصل بها الى التخمين فنحن لا ننتظر ان نرى العامة — المشهورة بتعصبها وخاصة في ذلك العهد الذي تلا اخماد فكرة المعتزلة وانتصار الاشعرية — تقبل على تلك المبادىء الجديدة المتسامحة . حتى ان علماء العصر لم يتفقوا فيما بينهم

---

(١٧) الرسائل ج ٤ ص ٣٦٨

(١٨) Stud-in a Mos. p. 196 (١٩) Lane-Poole, p. 190

على تقدير الخدمة التي اسداها الأخوان الى الاسلام وتوصلاً الى غرضنا نأخذ جملة من الشخصيات البارزة ونرى اثر الاخوان عليها :

اولاً — ابو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن العباس) الصوفي[٢٠]

سمي التوحيدي اما نسبة الى توحيد الله او نسبة الى نوع من التمر (توحيد) يظن ان احد اجداده كان يشتغل ببيعه[٢١] « كان متفنناً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والادب والفقه والكلام على رأي المعتزلة وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي ان ينتظم في سلكه ، فهو شيخ الصوفية وفيلسوف الادباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومتكلم المحققين وامام البلغاء ... فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة يتشكى صرف زمانه ويبكي في تصانيفه على حرمانه ... » قال فيه ياقوت « كان يتأله والناس على ثقة من دينه » وقال محمد بن النجار « كان صحيح العقيدة » وقد حكم المتأخرون بزندقته فطلبه الوزير المهلبي (توفي سنة ٩٦٣ م)[٢٢] فهرب منه ومات في الاستتار . وكان يعيش من أجور الاشتغال بالنسخ (الوراقة)

جاء في طبقات الشافعية[٢٣] « زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندي (توفي سنة ٩١٥ م) وابو حيان التوحيدي وابو العلاء[٢٤] (توفي ١٠٥٧ م) » ولا يعرف عن حياة التوحيدي الا ما جاء في ياقوت بأنه كان حياً في (شباط ١٠١٠ م) وانه توفي وقد اربى على الثمانين[٢٥] وقد اختلف في مسقط رأسه فمن قائل شيراز ومن قائل نيسابور ومن قائل بل واسط على انه قضى معظم حياته في بغداد بدرس العلوم والفقه . ودرس الفلسفة على عدي بن زيد وابي سليمان محمد بن طاهر المنطقي

---

(٢٠) Dhahabi in Margoliouth, J. R. A. S. 1905, pp. 79—81

(٢١) قال المتنبي : يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من حلاوة التوحيد

(٢٢) وهناك من يقول بل نفاه (٢٣) السبكي ج ٤ ص ٢ و ٣

(٢٤) ابو الفرج ابن الجوزي (كما اقتبسه السبكي) يقول ان ابا العلاء لم يكن زنديقاً

(٢٥) قيل توفي سنة ٣٨٠ هـ (مارغوليوث) وعلى غلاف كتابه (المقابسات) انه توفي سنة ٤٠٠ هـ

وغيرهما ما بين سنتي ٩٧١—١٠٠١ م . وفي اواخر ايامه هجا ابن العميد والصاحب بن عباد لانه لم يحظ عندهما بما كان يصبو اليه . وقضى ايامه الاخيرة في بغداد فقيراً وقبل موته حرق مكتبه مدعياً ان الناس قد هجروها[٢٦]

هذا هو ابو حيان صديق اخوان الصفا والذي يرى « الكونت دي جلاارزا » انه احدهم[٢٧] وعلى كل حال فنحن نعرف انه قد طالت عشرته لزيد بن رفاعة قال الوزير صمصام الدولة لابي حيان« بلغني يا أبا حيان انك تغشاه (زيداً)وتجلس اليه وتكثر عنده ولك معه نوادر معجبة[٢٨] » وكثيراً ما كان يسأل المقدسي مسائل فلسفية بباب الطاق في بغداد[٢٩] وكان على اتصال بجماعة تشبه جماعة اخوان الصفا قامت في بغداد . وكتاب التوحيدي المعروف (بالمقابسات) هو محضر جلسات هذه الجماعة التي كان التوحيدي احد اعضائها . .[٣٠] ولا مانع من انه كان صلة الوصل بين الجماعتين اذ نعرف انه قدم رسائل الاخوان الى شيخ جماعة بغداد فقال فيها ما قلناه سابقاً . ومجرد سؤال الوزير لابي حيان عن زيد دليل واضح على ان الوزير لم يعرف من هو أدنى الى اخوان الصفا من التوحيدي

الا يصح لنا بعد هذا ان نعتقد ان التوحيدي ان لم يكن قد انخرط في عضوية جماعة اخوان الصفا فلا اقل من ان يكون من المحبذين لافكارهم الدائنين بآرائهم المبشرين بمثلهم ؟ بلى فان من يقرأ مقابساته ورسالة الصداقة والصديق لا يعجز عن تسنم أثر اخوان الصفا في نفسه

---

(٢٦) Encyc, of Islam, art. Abu Hayyan - Margol.

(٢٧) زكي مبارك — الاخلاق عند الغزالي ص ٧٢—٧٣

(٢٨) القفطي ص ٥٩ (٢٩) القفطي ص ٦٢

(٣٠) المقابسات للتوحيدي ص ٣٩

ثانياً — يحيى بن عدي

كتب بروكلمان[٣١] كلمة في يحيى بن عدي وكتب هيار (Huart) كذلك ولم تذكره دائرة معارف الاسلام تحت عنوان «بن عدي» ولا «ابي زكريا» . ولكننا قرأنا موءخراً في مجلة اللغات السامية الاميركية[٣٢] مقالاً للمطران مار سويريوس افرام برصوم مطران السريان في سوريا ولبنان عن حياة ابن عدي وموءلفاته ومطبوعة من كتابه « تهذيب الاخلاق » وقد اثنى محرر المجلة على سيادة المطران كثيراً

كان يحيى نصرانياً يعقوبي النحلة[٣٣] ولد سنة ٢٨٣ هـ ٨٩٣ م وتوفي سنة ٣٦٤ هـ ٩٧٣ م او ٩٧٤ م . وهو احد فلاسفة السريان الذين اشتهروا بالنقل عن السريانية الى العربية . وهو فوق ذلك كاتب مجيد بالعربية . نشأ في تكريت ثم نزل بغداد ومات فيها . وهنا قرأ على الفارابي وغيره ونبغ في المنطق والفلسفة واللاهوت واستعمل عقله في فحص دقائق الامور توصلاً الى الحقيقة وكان مع هذا قليل الدعوى فلا غرو اذا انتهت اليه « رئاسة اهل المنطق في زمانه »[٣٤]

---

(٣١) Ges. der., ar Lit., Vol I, P. 201

(٣٢) Journal of the Sem. Languages and Literatures, Oct, 1928; jan, 1929

(٣٣) القفطي ص ٢٣٧ ، ابن أبي اصيبعة ج ١ ص ٢٣٥

(٣٤) « ص ٢٣٦—٧ ، الفهرست لابن النديم ص ٢٦٤

والمشهور عنه انه كان ملازماً للنسخ بيده وقد عاتبه ابن النديم صاحب الفهرس على ذلك يوماً في الوراقين فقال له « من اي شيء تعجب أمن بصري وقعودي لقد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما الى ملوك الاطراف . وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى . ولعهدي بنفسي وانا اكتب في اليوم والليلة مئة ورقة او اقل »[٣٥]

وله مصنفات كثيرة نشر منها للآن ثماني مقالات لاهوتية واما الباقي و يقرب عدده من الستين فلا يزال مخطوطاً في مكتبة الفاتيكان والمكتبة الاهلية بباريس وغيرهما . وقد اجمع من ترجم له على الثناء عليه والاقرار له بطول الباع في علوم المنطق والفلسفة واللاهوت[٣٦]

وقد اوصى ان يكتب على قبره ما يأتي :

رُبَّ ميت قد صار بالعلم حياً ومبقى قد مات جهلاً وعيا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً لا تعدوا الحياة في الجهل شيا[٣٧]

واما الذي يهمنا من حياته فاتصاله مع جماعة بغداد التي كان ابو حيان التوحيدي احد افرادها . فيكون اذا قد سمع باخوان الصفا اذا لم يكن قد قرأ رسائلهم او بعضها . وقد وجدنا بدرسنا لكتاب تهذيب الاخلاق المنشور في « مجلة اللغات السامية الامريكية» انه يوافق تعاليم اخوان الصفا في كثير من المواضيع . فهو لا يزال يذكر « الانسان التام المهذب الاخلاق » وان الغاية من كتابه انما هي تكميل الاخلاق (النفس)[٣٨] الامر الذي تعب الاخوان كثيراً للتوصل اليه . والآن دونك مثالان على موافقة نزعته لتعاليم الرسائل :

---

(٣٥) القفطي ص ٢٣٧ ، ابن النديم ص ٢٦٤

(٣٦) قابل غير ما ذكرنا مـ. الك الابصار للعمري ص٣٠٦ ومختصر تاريخ الدول لابن العبري ص٢٩٦

(٣٧) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٣٥

(٣٨) ص ١٣ ، ٦٨ من الاصل المخطوط المنشور في المجلة المذكورة

قال في تعريف الوفاء[٣٩] « الصبر على ما يبذله الانسان من نفسه و يرهن به لسانه والخروج مما يضمنه ولو كان محجفاً به . فليس يعد وفياً من لم يلحقه بوفائه اذية وان قليلة . وكلما اضر به الدخول تحت ما يحكم به على نفسه كان ابلغ في الوفاء وهذا الخلق محمود ينتفع به جميع الناس » وقال حاضاً على الرأفة والمحبة « وينبغي لمحب الكمال ايضاً ان يعود نفسه محبة الناس اجمع والتودد اليهم والتحنن عليهم والرأفة والرحمة لهم فان الناس قبيل واحد متناسبون تجمعهم الانسانية وتحلية[٤٠] القوة الالهية هي في جميعهم وفي كل واحد منهم وهي النفس العاقلة وبهذه النفس صار الانسان انساناً وهي اشرف جزئي الانسان اللذين هما النفس والجسد والانسان بالحقيقة هو النفس العاقلة وهي جوهر واحد في جميع الناس . والناس كلهم بالحقيقة شيء واحد و بالاشخاص كثيرون . واذا كانت نفوسهم واحدة والمودة انما تكون بالنفس فواجب ان يكونوا كلهم متحابين متوددين»[٤١]

وكان اخوان الصفا كما عهدناهم يعتقدون ان لهم نفساً واحدة وجسماً واحداً . وما هذه الاجسام الا مظاهر او قشور تتستر وراءها الروح او النفس التي هي الشطر الالهي في الانسان . وتعليل ابن عدي هذا قريب جداً من تعليل اخوان الصفا فهل نقله عنهم ؟

ثالثاً — جماعة بغداد

قامت في اواخر القرن الثامن للميلاد جمعية كان في اعضائها السني والشيعي واليهودي والنصراني والصابئي والدهري تربط هؤلاء الاعضاء المختلفي الملل والنحل والمشارب والاهواء عوامل نفسانية و يدفعها الى عرضها هذا حب البحث والعلم[٤٢] ويحدثنا ابو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات عن مجلس كان يأتلف في بغداد

---

(٣٩) ص ٢٦—٢٧ من نفس الاصل (٤٠) في نسخة اخرى (وحلية)

(٤١) ص ٦١—٦٢ من نفس الاصل

(٤٢) Lane-Poole, op. cit, P. 185

من اعضائه ابو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني وابو زكريا الصميري والعروضي ابو محمد المقدسي والنوشنجاني ويحيى بن عدي وابو اسحق الصابي وابو الحسن العامري وابو اسحق النصيبي وماني المجوسي

وهذا المجلس شبيه بجمعية اخوان الصفا لولا انه على ما يظهر لم يكن سرياً فما كان يدور فيه من الاحاديث شبيه باحاديث اخوان الصفا والمواضيع التي كانوا يتدارسونها لا تقل في اهميتها عن مواضيع الرسائل نفسها وقد وصلتنا شذرات مختصرة منها في مقابسات ابي حيان ٠ وفيما كان التوحيدي يقرأ على ابي سليمان الانف الذكر « كتاب النفس » للفيلسوف (اي الكندي وهو مشهور بهذا الاسم) سنة ٣٧١ ه بمدينة السلام قال ابو سليمان « ان النفس قابلة الفضائل والرذائل »[٤٣] وكانت غايتهم كغاية اخوان الصفا تطهير الاخلاق[٤٤] وكلمات « الصاحب » و « الصديق » و « الصفو » بمعانيها الخاصة لم تكن من الكلمات غير المألوفة لديهم كلا بل نحن نجدها من الشائعة ففي مقابسات التوحيدي مقابسة خاصة للصداقة[٤٥] وكانوا كاخوان الصفا يتدارسون الكتب الفلسفية و يتباحثون فيها ثم يقررون ما يراه رئيسهم بعد الاخذ والرد

وقد وجدنا ان السجستاني ابا سليمان كان رئيس هذا المجلس اذ يقول التوحيدي « دارت في مجلس ابي سليمان »[٤٦] ... مناظرات .. ثم قوله « املى علينا ابو سليمان »[٤٧] وقوله « املى علي ايضاً (على ابي حيان)[٤٨] » ٠ وفي محضر الجلسات نراه هو البادئ بالحديث وهو الذي كان يستحسن او يزيف واكثر المقابسات هي عنه[٤٩] ٠ و يثبت ذلك قول ابي حيان الذي نقله عنه القفطي عند ما سئل عن الرسائل

---

(٤٣) المقابسات ص ٥٧ (٤٤) المقابسات ص ١١—١٢

(٤٥) « « ١١٤ (٤٦) « « ٣

(٤٧) « « ٧٢ (٤٨) منه ص ٧٣

(٤٩) تثبيتاً لقولنا هذا راجع الصفحات ٩ ، ٢٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٤

اذ قال اخذت جملة منها « الى شيخنا ابي سليمان السجستاني محمد بن بهرام »[٥٠] هؤلاء جماعة لا برهان على انهم كانوا فرعاً لجماعة اخوان الصفا وانما يظهر على انهم سعوا الى كثير مما سعى اليه الاخوان انفسهم . ويكفي برهاناً على اتصالهم باخوان الصفا ان الرسائل وصلت الى شيخهم . ويكفي برهاناً على هذا الاتصال ايضاً ان التوحيدي احد افراد جماعتهم كان صديقاً حميماً لزيد بن رفاعه وقد رأه المقدسي وحادثه وقرأ الرسائل واعطاها لشيخه

هذا ولم يكن امر هذه الجماعات الفلسفية السرية وغير السرية بالغريب عن اهل ذلك العصر . فنحن نعلم ان المعري لما قدم بغداد كان يختلف الى المجمع الفلسفي الذي كان ياتلف يوم الجمعة بدار عبد السلام البصري « وكان هذا المجمع السري هو الذي اسماه المعري اخوان الصفا » حين قال

كم بلدة فارقتها ومعاشر   يذرفون من اسف علي دموعا
واذا اضاعتني الخطوب فلن ارى   لوداد اخوان الصفاء مضيعا
خاللت توديع الاصادق للنوى   فمتى اودع خلي التوديعا[٥١]

فاذا ذكرنا ان الاخون كانوا ابداً يسعون الى تاسيس فروع لجماعتهم في بلدان الخلافة، واذا فكرنا في ان هذا المجمع كان سريا لا نرى مانعاً من ان يكون هذا المجلس فرعاً من فروع اخوان الصفا . والا فما الذي اقنع ابا العلاء ذلك المتشائم الذي لم ير في الناس من يستحق الصداقة او من فيه ذرة من الصلاح

ان مازت الناس اخلاق يعاش بها   فانهم عند سوء الطبع اسواء

نقول من ذا الذي اقنع ابا العلاء وله ذاك المزاج ان يعترف بوجود اخوان صفا غير هؤلاء الجماعة الذي كان صفاؤهم روحياً لا دخل له بامور الدنيا

ويظهر ان هذا المجمع الاخير هو غير المجمع الاخر الذي كان قد اسسه الشريف الرضي والذي كان يتردد اليه ابو العلاء اثناء اقامته في بغداد (سنة ١٠٠٩ — ١٠١٠)

---

(٥٠) القفطي ص ٦٠   (٥١) الدكتور طه حسين — ذكرى ابي العلاء ص ١٢٩

وقد كان لاحتكاك ابي العلاء مع تلك الجماعات وتعرفه الى مختلف النظريات الفلسفية والدينية والصوفية الاثر الاكبر في اتجاه افكاره وفلسفته بعدئذ [٥٢] قال الاستاذ مكدونالد يظهر ان ابا العلاء اتصل بفئة مثل اخوان الصفا ان لم يكونوا هم بعينهم [٥٣]

رابعاً — السنة

ما كان اضطهاد السنة الذي عقب خلافة المامون ليخمد جذوة تلك الحركات الفكرية التواقة الى البحث النزاعة الى التحري · فالمعتزلة وان أخمدتهم الاضطهادات فان تعاليمهم قد وجدت من يقوم بحمايتها ونشرها — وجدت اخوان الصفا · ولولا انه كان لبني بويه المشهورين بتشيعهم كل النفوذ في بغداد لما استطاعت هذه الجماعة ان تنشر من تعاليمها شيئاً ولكنها تشجعت بما نشره هؤلاء الامراء من روح التسامح فقاموا بعمل المعتزلة خير قيام واوجدوا من لدنهم نظاماً خاصا رأوا فيه الخير كل الخير · والحقيقة انه بعد تغلب بني بويه على مقر الخلافة لم يخش الفلاسفة والقائلون بحرية الفكر سلطة الدولة وانما ظلوا يرهبون جانب العامة ولا سيما حنابلة بغداد [٥٤] ولكن هل اشفق اخون الصفا على جماعتهم من الاضطهاد ؟

تجيبنا الرسائل ان القوم كانوا لا يظهرون عقائدهم واقوالهم وفلسفتهم « مخافة السيف » [٥٥] زد على ذلك قول مصنف الرسائل في مخاطبته للداعي بانه قد هيئ له مكان ياوى اليه « لا تصل فيه اليك ايدي الظالمين [٥٦] » وقد صب مصنف الرسائل جام غضبه على تلك « الطائفة الظالمة المجادلة المخاصمة الكفرة الفجرة الذين يخوضون في المعقولات وهم لا يعلمون في المحسوسات ويتعاطون البراهين والقياسات وهم لا

---

(٥٢) Nichols n, Lit. Hist, P. 314, Margoliouth, Introduction to the Letters oof Abu-l-Ala, P. XXII

(٥٣) Muslim Theology, P. 167

(٥٤) Macdonald, op. cit, P. 198

(٥٥) الرسائل ج ٤ ص ١٠١ س ٤ من الاسفل

(٥٦) الرسائل ج ٤ ص ٢٦٧

يحسنون الرياضيات ويتكلمون في الالهيات وهم يجهلون في الطبيعيات» فهم يتكلمون في التجويز والتعديل ويأنفون ان يقولوا « لا ندري ! » يدعون ان علم المنطق والطبيعيات كفر وزندقة واهلها ملحدون يموهون على احرار الفكر ويكذبون عليهم تضليلاً للرأي العام ويدعون بهذا نصرة الاسلام[٥٧]

وقد عرفنا ان عصر الاخون هو عصر رجعية لا سيما بعد ان انجمدت فكرة المعتزلة . فعلم النجوم كان ممقوتاً وازلية العالم نظرية مخطرة والسعي للتوفيق بين الشريعة والفلسفة « مرام دونه حدد »[٥٨] ولذلك اضطر الاخوان حين تصنيف الرسائل الى القول بان علم النجوم « ليس ادعاء الغيب الذى هو التطلع الى مـا سيكون بلا استدلال ولا علة الامر الذي يعجز عنه الانبياء والملائكة بله الخلائق» وانما هو الاستدلال على ما هو كائن في المستقبل بالنظر بالحاضر وفائدته دفع بعض ما سيكون بالاحتراز والاستعداد مع العلم بانه لا يصيب المرء الا ما كتب[٥٩] ومما يثبت ان الاخوان كانوا على الاقل لا يلاقون تشجيعاً على درسهم لعلم النجوم ان الفقهاء والمحدثين قد نهوا عن النظر فيه لانه جزء من الفلسفة . وعلى هذا اجاب الاخوان بان النظر في الفلسفة لا يزيد من قد تعلم علم الشريعة واحكام الدين الا فهماً لها وتثبتاً فيها[٦٠]

ومما زاد السنة في طغياناً وتصلباً ان كثيرين من علماء ذلك العصر لم يروا رأى اخون الصفا . فهذا السجستاني زعيم فريق بغداد بعد ان قرأ الرسائل صرح بانه يستحيل دس الفلسفة في الشريعة وذلك لان الشريعة مأخوذة بوساطة الوحي « وهناك يسقط لِمَ وكيف »[٦١] بل هو قد ذهب الى ابعد من ذلك في ان هذه الفلسفة ليست ضرورية بدليل ان الله لم ينبه عليها في الكتاب . وزاد بانه « كما لم نجد

---

(٥٧) الرسائل ج ٤ ص ٩٥—٩٦ (٥٨) القفطي ص ٦٠
(٥٩) 〃 ج ١ ص ٨٠ و ٨٢ (٦٠) الرسائل ج ١ ص ٨٢—٨٣
(٦١) القفطي ص ٦٠

هذه الامة تفزع الى اصحاب الفلسفة في شيء من امورها فكذلك ما وجدنا امة موسى وهي اليهود تفزع الى الفلاسفة في شيء من دينها وكذلك امة عيسى وهي النصارى ...»

ثم يقول بان الفرق الاسلامية من المعتزلة والمرجئة والشيعة والسنة والخوارج جميعها لم تفزع الى الفلاسفة . حتى ان الفقهاء الذين اختلفوا بالاحكام لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة واستنصروهم[٦٢] وهذا امر لا شك في خطأه لاننا نعرف بطريقة لا مجال للريب فيها ان جميع تلك الفرق الآنفة الذكر تأثرت بالفلاسفة . ولا يسمح المقام للتبسط في البرهان

وكان النزاع ايضاً قائماً حول العقل وسلطته فالرسائل تقول بان لا بد لكل جماعة «من رئيس يرأسها .... وذلك الرئيس ايضاً لا بد له من اصل يبني عليه امره .... ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة اخواننا والحكم بيننا (العقل) .... ورضينا بموجبات قضاياه على الشرائط التي ذكرناها في رسائلنا واوصينا بها اخواننا» وهذه الرئاسة على كل حال رئاسة روحية محضة[٦٣] ولكن ما هو هذا العقل ؟ العقل عندهم «هو النفس الانسانية صارت علامة بالفعل بعد ان كانت علامة بالقوة» وذلك «بعد ما حصل فيها صور هوية الاشياء بطريق الحواس وصور ماهيتها بطريق الفكر والروية»[٦٤]

على هذه القضية يجيب السجستاني[٦٥] بعد ان تخلص من برهان استحالة التوفيق بين الوحي والرأي بقوله «فان ادلوا بالعقل فالعقل من هبة الله جل وعز لكل عبد ومنازل الناس متفاوتة فيه .... ولو كان العقل يكتفى به لم يكن للوحي فائدة ... ولو كنا نستغني عن الوحي بالعقل كيف كنا نصنع وليس العقل باسره لواحد منا؟!

---

(٦٢) القفطي — اخبار الحكماء — ص ٩١
(٦٣) الرسائل ج ٤ ص ١٨٣ (٦٤) ج ١ ص ١٣٧ (رسالة ١٣)
(٦٥) القفطي ص ٦٢

هذه بعض المشاكل التي تعارضت فيها اراء اخوان الصفا مع تعاليم متطرفي اهل السنة في عصرهم . فلا عجب ان رأيناهم يلجأون الى التقية والكتمان بعدان عرفوا من عدوان السلطة وتعصب العامة ما عرفوا

خامساً — الاسماعيلية

اتجه الفكر موخراً الى الاعتقاد بوجود صلة متينة بين تعاليم الاسماعيلية (الفاطمية والقرامطة والحشاشين)من جهة وعقائد اخوان الصفا من الجهة الاخرى (٦٦) وزعيم القائلين بهذا الرأي المرحوم الاستاذ كزانوفا الذي وجد مخطوطة في المكتبة الاهلية بباريس (٦٧) مفقودة الصفحات الاولى والعنوان (٦٨) نقرأ على الصفحة السادسة منها هكذا « فصل من رسائل اخوان الصفا » وفي ابتدائها « القول على السر المخزون والعلم المصون من باطن رسالة الجامعة من رسائل اخوان الصفا» وفيها عدة اقتباسات من الرسائل نفسها (٦٩) ووردت فيها الجملة المشهورة « اعلم يا اخي ايدنا الله واياك بروح منه » التي يتكرر ذكرها في كل صفحة من الرسائل

و يظهر ان كاتب هذه المخطوطة هو احد الحشاشين لانه يذكر حوادث جرت في (مَصيَف) عاصمتهم بتدقيق زائد وهو يذكر تواريخ فتح الحصون في ابتدى

---

(٦٦) cf. Macdonald, op. cit, P. 169

(٦٧) نمرة ٢٣٠٩ من فهرس دي سلان

(٦٨) journ. As. Guyard, 1821, P. 161

(٦٩) Nicholson, op. cit, P. 171

(كذا) الدعوة الهادية » وقوله الدعوة الهادية هذا لا يعرفه الا افراد تلك الفرقة . وهو يطلق على رئيسهم بسوريا لقب (الصاحب راشد الدين) ويترحم عليه بقوله « قدس الله سره » او « قدس الله روحه »

ووجد كزانوفا ان هذه الجامعة مصطبغة بالصبغة الاسماعيلية متلبسة بشمول الالوهية ونظرية الفيثاغوريين في الاعداد . واليك ما توصل اليه بعد درس المخطوطة « لا اراني الا مصيباً في القول ان فلسفة الاسماعيلية جميعها مبثوثة في رسائل اخوان الصفا . . . . فالقول بالامام المستور الذي سوف يظهر ليعيد السلام الى العالم — هذا القول عندهم يمثل امتزاج النظريات الافلاطونية بالاعتقاد بالمجيء الثاني المسيح . . . وعليه فمن الجور في الحكم ان يُرمى القرامطة والحشاشون بالكفر والانحطاط الاخلاقي كما جاء في فتوى ابن تيمية الذي يزعم ان القسم الاخير من (البلاغ الاكبر) انكار لوجود الخالق . اذ لم نجد في الرسالة الجامعة التي هي لب الرسائل وروحها ما يدعم هذا الزعم بل على الضد من ذلك نجد في تعاليمهم الطهارة والمثالية المتقمصة بنزعات الشمول الدائنة بالجمال البعيدة كل البعد عن نزعات الشك والمادية . . . »[٧٠]

والآن لا يرجح احد بان الرسائل من تأليف احد الائمة الا الاستاذ كزانوفا بعد درسه للجامعة قال المحبي[٧١] « وحاصل تلك الرسائل ليس الا مذهب الباطنية الاسماعيلية وهم انماء شتى ومعظم القول في هذه الشيعة من شيعتهم تناسخ الارواح وادعاء حلول الباري جل وعلا عما يقوله المبطلون في الانبياء المشهورين من آدم الى محمد عليهم الصلاة والسلام وفي ائمة آل البيت وآخرهم المهدي ويعظمونه على الجميع والاسماعيلية يوافقون الامامية في ذلك في الصادق ومن قبله ويخالفونهم في الكاظم ويقولون بامامة اسمعيل بن جعفر الصادق واليه ينسبون بالسبعية لقولهم لسبعة ائمة . . . »

---

(٧٠) Casanova, Notice sur un Manus. de la secte des Anasinos, journ. Asit, 1898, P. 151 s qq.

(٧١) خلاصة الاثر ج ٤ ص ٦—٧

والحق اننا نجد مشابهة بين التعاليم ومقاربة بين وسائط الدعاية وعطفا متبادلا بين الطرفين فنحن نعلم ان الاسماعيلية سموا انفسهم (صُفاة) واطلق اهل جبل (سمّاك) على انفسهم هذا الاسم في سنة ٥٧٢ هـ ونحن نعلم ان سنان المشهور براشد الدين خدم الاسماعيلية في قلعة الموت وقرأ كتب الفلاسفة وقرأ رسائل اخوان الصفا[٧٣] ونحن نعلم كذلك ان المغول عند فتحهم لتلك القلعة عثروا على كثير من نسخ رسائل اخوان الصفا[٧٤]

هذا ما يقوله مختلف الكتاب واما ما تقوله الرسائل فبرهان اوضح وحجة اقوى: جاء في رسالة (الانسان والحيوان)[٧٤] المطبوعة في مصر خطأ تحت عنوان (الجامعة) عند الاعتراض على مقالة المسلم القرشي التهامي قوله « قل انا تركنا الدين ورجعنا مرتدين بعد وفاة نبينا شاكين منافقين وقتلنا الائمة الفاضلين الخير بن طلباً للدنيا بالدين » وجاء فيها ايضا[٧٥] « نحن لبسنا السواد وطلبنا بثأر الحسين بن علي عليهما السلام (؟) وطردنا البغاة من بني مروان .... ونحن نرجو ان يظهر من بلادنا الامام المنتظر » ولم يلاق هذا الرأي اعتراضاً بتة خلاف جميع ما تقدمه من مقالات فانها جميعها كانت تعارض ويرد عليها. وجاء في الجزء الثاني من الرسائل قوله « علي بن ابي طالب صلوات الله عليه »[٧٦] وقوله « وصلوته على خير انبيائه محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين والعترة الطاهرة من ابنائه »[٧٧] وجاء في الجزء الثالث قوله « وصلى الله على النبي الخاتم والوحي القائم وعلى اولاده وبيته وعترته آباء الائمة المهذبين وامراء المؤمنين الموحدين[٧٨] » وفي الجزء الرابع يقر المؤلف بانهم يفضلون اهل البيت على ما سواهم وان الامام[٧٩] حجة الله على خلقه مستور والمهم كل

---

(٧٢) Journal Asiatique, 1855

(٧٣) احمد امين (مبادئ الفلسفة) — في — الاخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص ٧٣

(٧٤) المطبوعة على حدة ص ٧٩ — ٨٠ (٧٥) منها ايضاً ص ٨٣

(٧٦) الرسائل ج ٢ ص ٤٠ (الرسالة ٣) (٧٧) الرسائل ج ٢ ص ٢٧٠

(٧٨) 〃 ج ٣ ص ٢٤ (٧٩) ج ٤ ص ٢٢٢

المهم ان يكون الخليفة (خليفة الله) سماوياً لا ارضيا

ويفسر مصنف الرسائل وجود قوم يضادون شيعتهم ان هؤلاء قد ساءهم امر الاخوان بالمعروف ونهيهم عن المنكر حتى اتهموهم « باظهار التشيع »[٨٠] وفي الجزء الرابع من الرسائل قول صريح وهو قوله بعد التكلم عن كيفية قراءة الرسائل «لكنها اذا نظر فيها اخواننا وسمع قراءتها اهل شيعتنا وفهموا بعض معانيها وعرفوا حقيقة ماهم مقرون به من تفضيل اهل بيت النبي صلعم لانهم خزان الله ووارثو علم النبوات»[٨١]

على انه وردت في رسالة الانسان والحيوان الآنفة الذكر اسماء جميع الفرق الاسلامية وبينها الشيعة فتقضي المؤلف على ذلك بقوله «ونحن من هذه كلها براء ومذهبنا واحد واعتقادنا واحد وكلنا موحدون مؤمنون مسلمون »[٨٢] ولعل براءتهم من الشيعة مقصود بها تلك الطائفة من الناس والذين «ينتسبون الينا باجسادهم وهم براء بنفوسهم منا ويسمون انفسهم العلوية وما هم من العلويين ... وهم أعدا الناس لشيعتنا »[٨٣] لعل هذا هو تفسير البراءة او لعل تفسيرها هو في قضية الكتمان والتقية

هذه نقط الاقوال واما الاتفاقات في النظرات الفلسفية ومختلف طرق الدعاية السرية فتحتاج الى درس خاص على حدته ولعلنا نستطيع في المستقبل ان نسد هذه الثلمة

وعلينا الآن ان نبرهن على هذه الصلة بطريقة اخرى . فنحن استعملنا محتويات الرسالة الجامعة لهذا الغرض في السابق واما الان فسوف نستعمل اسمها فقط معقبين على ذلك برأينا الخاص في الموضوع .

قال ابو العلاء المعري :

لقد عجبوا لاهل البيت لما　　اتاهم علمهم في مسك جفر

وقال علي بن موسى الرضا في جوابه على كتاب المأمون بشأن ولاية عهده « اني قد اجبت امتثالا للامر وان كان الجفر والجامعة يدلان على ضد ذلك »[٨٤]

---

(٨٠) ج ٤ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ ، قابل مع نمرة (٨١)　　(٨١) ج ٤ ص ٢٢٢

(٨٢) الانسان والحيوان ص ١٥٤　　(٨٣) ج ٤ ص ١٩٥

(٨٤) Journ, As, 1846 — A, Cherbonneau, P. 312

فهذان الكتابان (الجفر والجامعة) هما الكتابان المعتبران عند العلويين[٨٥] . وهذه الجامعة العلوية لها نفس المقام الذي للجامعة الاخوانية ففي النسخة الموجودة في المكتبة الاهلية بباريس والتي هي برأي كزانوفا اقدم النسخ نقرأ هكذا « ثم الفهرست ثم الرسالة الجامعة لما في هذه الرسائل كلها المشتملة على خصائصها باسرها والغرض منها ايضاح حقائق ما اشرنا اليه ونبهنا عليه في هذه الرسائل اشد الايضاح والبيان . . . وهذه الرسائل كلها كالمقدمات لها والمدخل اليها . . . . والرسالة الجامعة هي تاج الرسائل ومنتهى الغرض لما قدمناه ونهاية القصد وغاية المراد[٨٦] »

فاذا كان امر التطابق في النظريات الفلسفية قد ظهر امره واذا كانت نفسية المؤالفة والعطف المتبادل قد توضحت واذا كان امر تسمية الجامعة في كلا الحالتين يدل على نفس المسمى وله نفس الاهمية فلا مانع من الاعتقاد بما قال به كزانوفا

اما نحن وان كنا نوافق على وجود التطابق في كثير من النظريات الفلسفية ووسائل الدعاية والتستر فاننا لا نرى في الشطر الثاني من الحجة شيئا يستحق هذا الاهتمام . فالجامعة مشتقة من (الجمع) ليس الا . وما قاله كزانوفا من انها ليست جامعة للرسائل ولا مختصرة لمحتوياتها يحتاج الى اهمال شهادة الرسائل نفسها في حين لا داعي لاهمال تلك الشهادة

جاء في الجزء الاول قوله « وذكرناه — عمران الارض كما جاء في صحف ادريس النبي — في رسالة الجامعة »[٨٧] وجاء في الجزء الرابع « وقد لخصنا ما قد اوردناه في رسائلنا الاحدى والخمسين في رسالة مفردة من الرسائل فسميناها الجامعة . وهي خارجة من جملة الرسائل فيها بيان ما اخبرناه في غيرها باخصر ما امكننا منه . . . . والاجود عندنا ان لا تقرأ الرسالة الجامعة الا بعد قراءة

---

(٨٥) Z. D. M. G. Vol. XLI, pp. 51, 123 (Goldziher)

(٨٦) Journ, As, 1827, P. 161 s 99. — st, Puyard

(٨٧) الرسائل ج ١ (رسالة ٩) ص ٣٨

رسائلنا الاحدى والخمسين » والمهم قوله « وقد عملنا تلك الرسالة لتنوب عن اخواتها»

وقال مصنف الرسائل في موضع آخر « ضمنّا الرسالة (التاسعة من هذا القسم) بهذا الفصل وسميناه (الفصل الجامع) للفوائد النافعة وهو بمنزلة القلب من الجسد[٨٨]» وقد اطلقوا (الفصل الجامع) على الرسالة الجامعة نفسها يقول المصنف « ونحن نامرك ايها الاخ السعيد بعد وقوفك على هذه الرسالة (الجامعة) ان تتبع ما امرناك به فانك تنال السعادة العظمى ... وانما سميناه الفصل الجامع لانه جمع اصل سعادات المنافع)[٨٩]» ونحن نعرف بدس الرسائل انهم جعلوا لكل رسالة (فصلا) بمكان اللب الخالص منها)[٩٠]

فالجامعة لا تعني سوى رسالة جمعت واختصرت الرسائل لتنوب عنها في حالة استحالة الوصول الى جميع الرسائل[٩١] وقد علقوا عليها هذه الاهمية الكبرى لانها جامعة للب المعرفة ومختصرة لقضايا الحكمة — الطريق الى معرفة الله والاتصال به

واي شيء اعظم من هذا ؟

ها قد اجملنا القول في اثر الجماعة في عصرها وما كان لها من العلاقات مع الجماعات الفكرية والفلسفية وان لنا ان نوجه وجوهنا شطر قضية اخرى ونختم هذا الفصل وهي ما تركته الجماعة من الاثر فيما جاء بعدها . ورغماً عن اهمية هذا الموضوع وتشعب اطرافه فاني سوف لا اتبسط فيه اولاً لانه قد يُعد بعيداً عن موضوع هذه الرسالة وثانياً لاني لم ادرسه الدرس الكافي لقلة المراجع

والحق ان اثر الجماعة لم يقتصر على المشرق بل تعداه الى المغرب ولعب دوراً مهما في الآداب اليهودية والتعاليم الاسماعيلية وخاصة الحشاشين . وكما ذكرنا سابقاً ان مجرد انتحال الرسائل وما لاقته من الاقبال على درسها واختصارها ونسخها والنسج على منوالها دليل واضح على مقدار شأنها . وقد اختلف رأي الناس على كل حال في

---

(٨٨) الرسائل ج ٤ ص ٢٦٥ و ٢٨٠

(٨٩) الرسائل ج ٤ ص ٢٦٥ (٩٠) منه ايضاً (٩١) منه ايضاً

خوان الصفا فمنهم من صب عليهم جام غضبه ومنهم من رأى فيهم المرشد القدير .
وقد وصلتنا كلمات متفرقة تجرب ان نلم شعثها فيما يلي من النقط :

نقل الاستاذ فلوغل[٩٢] عن سبرنغر Sprenger قوله (وجدت وصفاً لاحد موءلفي رسائل اخوان الصفا بهذه الكلمات—كان زيد بن رفاعة (احد موءلفي رسائل اخوان الصفا) جاهلاً كل الجهل بعلم الحديث كاذباً دون خجل . . .) وجاءنا ايضاً ان الفيلسوف العربي ابن باجه لقب الاخوان بقوله «ضالين»

وكان من نتيجة نسبة الرسائل الى المجريطي وتأليفه على نمطها ومن نسبتها الى تلميذه الكرماني ان شاع امرها في الاندلس . وقد وجدنا ان يهوديا اسمه يوسف بن صديق Joseph Ben Saddik الف كتاباً بالعبرية اسمه (اخوان الصفا)[٩٣] ولعل اظهر اثر لاخوان الصفا في الدوائر اليهودية ما دلل عليه H. Loewe[٩٤] اذ قال ان (قبالا) في تاريخ اليهود لها معاني متعددة منها المعنى الصوفي المختص بصفات الله وعلاقاته مع العالم . اما قبالا التي دان بها اليهود المتكلمون بالعربية فقد طرأ عليها تغيير عن طريق الاثر اليوناني . على انه كان لكتابات اخوان الصفا الداعية الى التهذيب الاخلاقي اعمق الاثر في اليهود وخاصة في[٩٥] Bahya ibn Pakuda من اهل الجيل الحادي عشر فعقيدة الصدور Emanation وتاثير الاعداد اخذها القبلائيون من اليهود عن اخوان الصفا

اما الغزالي فيقول زكي مبارك في كتابه (الاخلاق عند الغزالي)[٩٦] انه صب على الاخوان (جام سخطه وغضبه) ولم نحقق نحن هذه النقطة بانفسنا وانما وجدنا

---

(٩٢) Z. D. M. G. Vol XIII, P. 26

(٩٣) Jewish. Encyc. Vol. VII, P. 273, Z. D. M. G. Vol. XIII, P. 2

(٩٤) Encyc. of Rel. and Eth. Vol. VII, P. 624; Encyc. Brit. III, P. 213

(٩٥) Encyc. Brit. Vol. III, P. 213, art. by Israel Abraham, Cambridge

(٩٦) زكي مبارك ص ٧٣

بقراءتنا للجزء الثاني من احياء علوم الدين للامام الغزالي[٩٧] (باب الاخوة) انه قد تاثر بفلسفة اخوان الصفاء . و يوافقنا على انه اقتبس عن الاخوان ما قاله الاستاذ[٩٨] لان بول في ذلك

قال الغزالي (الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بالطاف التخصيص طولا وامتنانا والف بين قلوبهم فاصبحوا بنعمته اخوانا) وقال (ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والالفة والمخالطة) ولسنا ندري من هم هؤلاء الجماعة ؟ لعلهم اخوان الصفا .

وقد بين الغزالي انه يجب ان ننظر الى خمس خصال فيمن نود مصاحبته : (ان يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا)[٩٩] وقد بين ان تعاون الاخوان يجعلهم كالشخص الواحد[١٠٠] الامر الذي تكاد كل رسالة من رسائل اخوان الصفا تضيق عن ترداده . وقد ردد كلمة (الصفا) وآداب الصداقة واليك قوله (هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب . ومهما صفت القلوب استغني عن تكلف اظهار ما فيها . . .)[١٠١]

خذ من خليلك ما صفا ودع الذي فيه الكدر[١٠٢]

و يقول الاستاذ اوليري[١٠٣] ان الحركات الفكرية في زمن الفاطميين كانت مرتبطة اشد ارتباط بفلسفه اخوان الصفا وقد لاحظ ان هذه الجماعة منذ نشوئها وهي تعتمد على الشيعة العلوية الم تقم و بنو بويه حكام بغداد ؟ الم يعترفوا بانفسهم بانهم من الشيعة المناصرين لال البيت ؟ الم يبين الاستاذ كازانوفا هذه الصلة بدرس

---

(٩٧) احياء علوم الدين ج ٢ ص ١٣٥

(٩٨) Stud. op. cit. P. 192

(٩٩) احياء علوم الدين ج ٢ ص ١٤٧

(١٠٠) احياء علوم الدين ج ٢ ص ١٥٠ (١٠١) احياء علوم الدين ج ٢ ص ١٦٦

(١٠٢) منه ايضا ص ١٦١

(١٠٣) A Short Hist. of the Fat. Khal. PP. 139,140

الرسالة الجامعة

ووصلنا ان اشهر الكتب التي كانت متداولة في نهاية القرن العاشر للميلاد هي : —

(١) رسائل اخوان الصفا

(٢) مفاتيح العلوم لابي عبدالله الكاتب الخوارزمي (الفه سنة ٩٧٦م)[١٠٤]

(٣) الفهرست لابن النديم (الفه سنة ٩٨٨ م)[١٠٥]

الاولان يبحثان بالفلسفة والعلم واما الاخير فبالادب . وهذا الشيوع والانتشار الذي حظيت به الرسائل كان من نتائجه ان شاعت اراء الاخوان واخذت تظهر مصطلحاتهم في كتابات الادباء والعلماء والفلاسفة . جاء في يتيمة الدهر[١٠٦] في شعراء اهل العصر للثعالبي (توفي ٤٢٨ ﻫ/١٠٣٨ م)[١٠٧] : —

(وفيما شدّ به من الاعضاد فيّ اخوان الصفا الذي سيدي ايده الله ناظم شمل محاسنهم ونائب سبق افاضلهم) ولم يكن نظر الناس الى اخوان الصفا دائماً نظر اعجاب وتقدير فكثيراً ما كان نظرهم اليهم نظر امتهان وتحقير . ذكر البهائي المترجم له في (خلاصة الاثر)[١٠٨] ان (ممن ذم من يقرأ كتاب اخوان الصفا — محمد بن الجلي الطبيب المعروف بالعنتري بقوله :

رسائل اخواننا في الصفا	هم اصبحوا كافاعي الصفا
اذا جئتهم لم تجدهم سوى	أراقم من تحت شوك السفا
عناصرهم كدرات الطباع	ومن كدر كيف يرجى الصفا

---

(١٠٤) نشره في ليدن سنة ١٨٩٥ الاستاذ Von Vloten

(١٠٥) ليبزغ ١٨٧٢ الاستاذ Flügel

(١٠٦) الجزء الثاني من يتيمة الدهر ص ٨٩ : انظر امثلة على الصفا والاخ والوداد في معجم الادباء لياقوت (مرغوليوث) ج ١ ص ١٣١ ، ٣٢٧

(١٠٧) اليتيمة ج ٢ ص ٣١٥ . قابل Nicholson, op. cit. PP. 308, 348

(١٠٨) خلاصة الاثر للمحبي ج ٤ ص ٧

وكانوا ظباء الربى بالنقا　　فصاروا ذئاب الغضا بالفلا

الخ . . . الخ . . .

واخيراً نختم هذا الفصل بفتوى تقي الدين بن تيمية المشهور (توفي سنة ١٣٢٨م) المنشورة في ال Journal Asiatique [١٠٩] عن سنة ١٨٧١ قال «وهم (النصيرية = الباطنية والاسماعيلية والقرامطة) يبنون قولهم على مذاهب المتفلسفة او الالاهيين كما فعل اصحاب رسائل اخوان الصفا . ويقولون اول ما خلق الله العقل يوافق قول المتفلسفة اتباع ارسطو ان اول الصادرات عن واجب الوجود هو العقل» ثم قال ان اصحاب الرسائل يؤولون اقوال النبي بحسب اغراضهم كما يفعل النصيرية . فابن تيمية في اعتراضه على النصيرية يعترض ضمناً على اخون الصفا . وربما ناسب ان نقول مع المحبي [١١٠] هنا (لكنه — ابن تيمية — يفرط في كلامه فلا تغتر بجميع ما يقوله)

خاتمة

« الحكمة الصالحة مثل الميراث بل افضل لانها تحيي صاحبها »

هذه جماعة اخوان الصفا —

اقدمها من جديد لاخواني الناطقين بالضاد ولسادتي العلماء المستشرقين فهي وان تطاولت يد السلطة القاهرة فابقتها مكتومة عنا — فانها ما قويت على اخماد حكمتها الخالدة

هذه جماعة اخوان الصفا —

لاقت من اهل عصرها ما يلاقيه الكثيرون منا في هذا العصر . فما اشبه اليوم بالامس : فيومنا كامسهم عهد تصادم بين ثقافتين ، بين مثلين متغايرين ، وفوق كل شيء هو عهد نزاع بين الوحي والرأي ، بين النقل والعقل . . .

فلندرس اخوان الصفا

---

(١٠٩) Journal Asiatique, 1871, VI, sérec t. XVIII, PP. 158-198

(١١٠) خلاصة الاثر ج ٤ ص ٨

جماعة اخوان الصفا

السيد عبد اللطيف الطيباوي

(٧)

الفصل الاخير

١ — كلمة[1]

موضوع هذه الرسالة « تاريخ اخوان الصفا واعتقاداتهم وفلسفتهم » وهو على اتساع نطاقه وغموض اكثر مناحيه لا تتسع له الصفحات القليلة المحددة[2] له لا سيما وقد اقتضى البحث العلمي الاكثار من الاقتباس والشواهد الى درجة بعيدة . ويا حبذا لو يتقاسم هذا البحث عدة اشخاص فينصرف واحد لتعيين تاريخ نشوء الجماعة وتأليف رسائلها وآخر لايجاد مقرهم الرئيسي وثالث الى معرفة مؤلف او مؤلفي الرسائل ورابع الى درس عقائدهم الاسماعيلية العلوية واخرون الى كثير من امثال هذه المعضلات

فنحن لا نعرف بوجه التحقيق من هو مؤلف هذه الرسائل ومتى ألفت واين ؟ ولسنا نعرف بعد مقدار صلتها بمدرسة الكندي من جهة وفلسفة الاسماعيلية من الجهة الاخرى . حتى ان الرسائل لم تطبع لحد الآن طبعاً علمياً موشحاً بالفهارس الابجدية مشروحة كلماته الاصطلاحية وتعريفاته الفلسفية . ولا نعلم ان احداً من ابناء اللغة العربية طرق هذا الموضوع وجاء بما يطمئن له البال سوى ما حاوله صاحب السعادة احمد زكي باشا في مقدمته التي صُدرت بها مطبوعة مصر لرسائل اخوان الصفا . اما ما كتبه المستشرقون وقليل ما هم الذين درسوا هذا البحث فقل من كثير مما يجب ان يكتب عن هذه الجماعة الصالحة . ولم نجد في جميع الكتابات الغربية بحثاً قائماً على درس علمي للرسائل . والعلماء يقرون بتقصيرهم في هذا السبيل

---

(١) كتبت كمقدمة ولكن تأخر نشرها

(٢) احد شروط المباراة لنيل جائزة هورد س . بلس

فعلى هذا لا مناص لي في هذه الرسالة من درس جميع النواحي من جديد ولا مناص لي كطالب للحقيقة الا ان اقدم هذه الحقيقة — كما اراها — كاملة غير منقوصة ٠ ولست أدعي اني قد جئت بما لا يضاهي : فما غرضي من هذه الفصول الا تمهيد الطريق للدرس الجدي ٠ ولهذا فقد اقتصرت على الاشارة الى معضلات هذا البحث اكثر مما توصلت الى حلها نهائيا ٠ اما ما اقترحته من اوجه الحل فليس سوى نظريات اطرحها على بساط البحث واني لسعيد اذا استطعت او استطاع غيري اثباتها على وجه اتم كما اني مستعد للعدول عن اي رأي اذا بدا لي من الحقائق ما ينفيه

وما هذه الفصول التي ما كنت اعلم انها ستطول حتى تبلغ هذا الحد الا نتيجة ما رأيته بنفسي وحققته بحسبي بعد ان جمعت ما وصلت اليه يدي من اصول ومؤلفات حديثة باللغات العربية والفارسية والانكليزية والالمانية والفرنسية ٠ وحسبي من كل ما صرفته من جهد وما تكبدته من مشاق وما تكبده اصدقائي واساتذتي في هذا السبيل — حسبي من كل ذلك اني قمت ببعض ما يجب علي من احياء مآثر السلف والتنقيب في مجاهل الماضي — بوضع (مقدمة) لدرس اخوان الصفا

ولا يسعني في الختام الا ان اشكر من صميم فؤادي جميع من آزروني في كتابة هذه الفصول التي لولا تلك المساعدة لجاءت مبتورة ناقصة : فالاباء اليسوعيون اعطوني فرصة ثمينة للتنقيب في مكتبتهم العامرة وتفضل احدهم وهو الاب الفاضل فرديناند توتل فساعدني في ترجمة مقالة بروكلمان الالماني من كتابه تاريخ الادب العربي

اما اساتذتي في جامعة بيروت الاميركية فقد شملوني بعطفهم وتشجيعهم ومكنوني من الانتفاع بمكتبة الجامعة الغنية بالمؤلفات الشرقية : وقد تفضل الاستاذ الجليل جبر ضومط[1] فكتب لي حول ناظمي بضعة ابيات وردت في الرسائل — اما استاذي انيس الخوري المقدسي فقد ارشدني الى ترجمة بعض المصطلحات العلمية والفلسفية — والاستاذ العالم جوليوس بروث تفضل فساعدني في ترجمة مقالة فلوغل الالماني — والاستاذ الرياضي منصور جرداق ساعدني في معرفة الاصطلاحات الفلكية ٠ اما استاذي الدكتور اسد رستم فقد شجعني كثيراً على المضي في التنقيب وطلب الي ان انقد مطبوعة مصر الاخيرة فكتبت مقالاً ضافياً في ذلك[2]

---

(١) ذلك قبل ان توفي في ١٨ كانون الثاني سنة ١٩٣٠ (رحمه الله)

(٢) نشرته مجلة الكشاف ببيروت في عدد تشرين الاول سنة ١٩٢٩

وقد وجدت من الاصدقاء « اخوان الصفا » كل معاضدة ومناصرة — فالسيد درويش المقدادي[1] كتب لي حول « باب الطاق » — والسيد زين نور الدين زين ترجم لي ما يختص بالموضوع نفسه عن الفارسية — اما السيدان ابرهيم مطر وجورج حداد فظلا يذهبان معي الى المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين ويساعداني الاول في ترجمة المراجع الالمانية والثاني في ترجمة المراجع الفرنسية حتى انتهيت من هذه الرسالة ٠

جامعة بيروت الاميركية «الرائد»[2]

كلية الاداب والعلوم ١٥ ايار سنة ١٩٢٩

٢ — مراجع هذه الرسالة

تحتوي هذه القائمة على معظم المراجع سواء أأصولاً كانت ام مؤلفات حديثة استعان بها كاتب هذه الرسالة وقد اهمل ذكر كثير من المراجع الثانوية والقواميس والمقالات العامة ٠ وراعى في ترتيب المؤلفات ان تكون على الطريقة الابجدية فذكر اولاً اسم المؤلف بكامله ثم الكتاب الذي ينسب اليه واخيراً اسم البلدة التي طبع فيها وسنة الطبع ٠ وحباً في المحافظة على الاصل وتجنبا للابهام جاء بالمراجع الغربية من انكليزية وفرنسية والمانية كما هي بالاصل

ويود ان يلفت نظر القارىء الى اهمية المراجع المشار اليها في ذيول الصفحات فما صرف عليها من الجهد لا يقل عما صرف في كتابة المتن ومعظمها تثبيت لما ذكر او اشارات الى براهين اخرى لم يسمح المقام بتعدادها جميعها

اولا — المراجع العربية — وفيها الاصول والمؤلفات الحديثة :

(١) ابن ابي أصيبعة — احمد

عيون الانباء في طبقات الاطباء — الجزء الاول — مصر ١٨٨٢م

---

(١) استاذ في دار المعلمين العليا ببغداد

(٢) وهو الاسم المستعار الذي اتخذه الكاتب عند ما قدم هذا المقال

(٢) ابن ابي حجلة — شهاب الدين
ديوان الصبابة (على هامش تزيين الاسواق للانطاكي) مصر ١٢٩١ه
(٣) ابن خلدون — عبد الرحمن
المقدمة (وهي الجزء الاول من كتاب العبر) بيروت ١٨٧٦م
(٤) ابن المقفع — عبدالله
كليلة ودمنة (مطبوعة الاب لويس شيخو) بيروت ١٩٠٥م
(٥) ابن النديم — محمد بن اسحق بن ابي يعقوب النديم الوراق البغدادي
كتاب الفهرست (مطبوعة الاستاذ G. Flügel) ليدن ١٨٧٢م
(٦) الانطاكي — داود الاكمه
تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق — مصر ١٢٩١ه
(٧) البستاني — المعلم بطرس
دائرة المعارف — الجزء الثاني -- بيروت سنة ١٨٧٧م
(٨) التوحيدي — ابوحيان
ا — المقابسات ، لا يعرف سنة طبعها ولا اسم المطبعة .
ب — رسالتان : الاولى في الصداقة والصديق والثانية في العلوم .
الاستانة ١٣٠١ه
(٩) الثعالبي — ابو منصور عبد الملك
يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر — الجزء ٤٢٣ دمشق ١٣٠٢ه
(١٠) الجاحظ — ابو عثمان عمرو بن بحر
كتاب الحيوان — الجزء السابع . مصر سنة ١٩٠٧ م
(١١) جرير — الشاعر
نقائض جرير والفرزدق (مطبوعة الاستاذ A. Bevan) ليدن ١٩٠٨م
(١٢) حسين — طه
ذكرى ابي العلاء (درس لحياة المعري وفلسفته) مصر سنة ١٩٢٢

(١٣) خليفة — حاجي مصطفى جابي
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون — جزآن .
الاستانة — سنة ١٠ — ١٣١١ﻫ

(١٤) الذهبي — شمس الدين
تذكرة الحفاظ — الجزء الثالث . حيدر آباد سنة ؟

(١٥) السبكي — عبد الوهاب
طبقات الشافعية الكبرى — الجزء الرابع — مصر ١٣٢٤ ﻫ

(١٦) شيخو — الاب لويس اليسوعي
مجاني الادب في حدائق العرب — بيروت ١٨٨٥م

(١٧) الطوسي — ابو نصر عبدالله بن علي السراج
كتاب اللمع في التصوّف (مطبوعة الاستاذ R. A. Nicholson)
ليدن ١٩١٤

(١٨) العطار — الشيخ ابو حامد محمد بن ابي بكر ابراهيم الشهير بفريد الدين
عطار النيسابوري — تذكرة الاولياء — الجزء الثاني (مطبوعة
الاستاذ Nicholson) فارسي . ليدن ١٩٠٧

(١٩) الغزالي — ابو حامد (حجة الاسلام)
احياء علوم الدين — الجزء الثاني — مصر ١٣٠٢ﻫ

(٢٠) القشيرى — عبد الكريم بن هوازن
الرسالة القشيرية في علم التصوف — مصر ١٣٢٠ﻫ

(٢١) القفطي — الوزير جمال الدين ابو الحسن
إخبار العلماء باخبار الحكماء — مصر ١٣٢٦ﻫ

(٢٢) كرد علي — محمد
مقالة « ابو حيان التوحيدي » مجلة المجمع العلمي ٣،٤،٥ مجلد ٨
دمشق ١٩٢٨م

(٢٣) المحبي — محمد
خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر — الجزء الرابع
مصر ١٢٨٤هـ

(٢٤) ياقوت — شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبد الله الحموي
الرومي البغدادي
(١) معجم الادباء (مطبوعة الاستاذ Margoliouth) · الجزء الاول
لندن ١٩٢٣ م
(٢) معجم البلدان — جزء ٢،٦ — مصر ١٣٢٤ هـ

ثانيا — المراجع الغربية — وفيها الانكليزي والالماني والفرنسي :

(1) Barsaum, Mar Severius Afram

art. (Yahya Ibn Adi) in the American journal of the Semitic Languages and Literatures, Chicago, Oct. 1928, jan. 1929

(2) Brockelman, C.

Geschichte der arabischen Literatur, vol. I., Weimar, 189

(3) Browne, E. G.

Literary History of Persia, vol. I, London, 1903

(4) Casanova, P.

Notice sur un manuscrit de la secte des Assassins

journal Asiatique, 1898

(5) Cherbonneau, A.

Extrait de L'Ovrage intitulé (Traité de la Conduite des Rois)

journal Asiatique, 1846

(6) De Boer, J. J.

a) Hist. of Phil. in Islam (Eng. tr.) London, 1903

b) Art. (Ikhwan as-Safa) in the Encyc. of Islam

(7) De Vaux, C.

Art. (Alchemy-Mohammedan) in the Encyc. of Rel. and Eth. vol. I, Edinburgh 1908

(8) Flügel, G.

Art. (ueber Inhalt und Verfasser der arabischen Encyclopadie Rasail Ikhwan as-Safa) in the Zeitschrift der Deütschen morgenlandischen Gesellschaft, vol. XIII, Leipzig, 1859, quoted as — Z. D. M. G.

(9) Goldziher, I.

a) art. on (Materialien zur Kenntniss der Almohadenbewegung in Nordafrika) in the Z. D. M. G., XLI, Leipzig, 1887

b) art. (über die Benennung der اخوان الصفا) in Der Islam; vol. I, Hamburg, 1910

c) Muhammedanische Studien; Part I. Halle, 1889

(10) Guyard, St. M.

Art. (Le Fetwa D'Ibn Taimiyyah sur les Nosairis) in the Journal Asiatique, 1871

(11) Lane-poole, S.

Studies in a Mosque, London, 1893

(12) Le Strange, G.

Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford, 1900

(13) Macdonald, D. B.

Muslim Theology ... etc.. New York, 1903

(14) Margolioath, D. S.

a) Letters of Abu l'Ala, Oxford, 1898

b) Art. (Abu Hayyan) in the Journal of the Royal Asiatic Society, 1905. quoted as J. R. A. S.

(15) Massignon, L.

a) Art. (Sur la date de la composition des Rasail Ikhawn as-Safa) in Der Islam, vol. IV, Hamburg, 1913

b) Kitab al-Tawasin of Al-Hallaj, -- Paris, 1913

(16) Nallino, C. A.

a) Albategnius, Ilm-ul-Falak. Part III

b) Art. (Battani) in the Encyc. of Islam

(17) Nicholson, R. A.

A Literary History of the Arabs, London, 1923

(18) O'Leary, De L.

A short History of the Fatimid Khalifate, London 1923

(19) Thatcher, G. T.

Art. on (Arabian philosophy) in the Encyc. Brit., Vol. II Cambridge, 1910

ثالثا — مراجع من طبائع مختلفة

(١) القرآن وفهرسه المطول (مطبوعة الاستاذ G. Flügel) ليبزغ سنة ١٨٤٢

(٢) رسائل اخوان الصفا — اربعة اجزاء في مجلدين منسوبة الى الامام « احمد بن عبدالله » بمبئ سنة ١٣٠٦ هـ

(٣) مخطوطتان مختصرتان لرسائل اخوان الصفا في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت

(٤) فهرس الكتبخانة الخديوية — الجزء السادس — مصر ١٣٠٨ هـ

(20) Catalogue of Arabic Manus. in Buhar Library (India), Calcutta, 1923

(21) Blochet, E.

Cat. Manus. Ar., Bibl.Nat., 1884-1924, Paris, 1925

(22) Ellis, A. G.

Cat. of Ar. Books in the Brit.Mus. vol. I, London, 1894

(23) De slane, M. Le Baron

Cat. Manus. Ar., Bibl. Nat., Paris, 1883-1895

(24) Rieu, C.

Supplement to the Cat. of the Ar. Manus. in the Brit. Mus. London, 1894

٣ — شكر واعتذار ورجاء

يجدر بي وقد انتهت فصول رسالة «اخوان الصفا» أن اقدم شكري الجزيل الى حضرة الصديق المفضال شحادة افندي شحادة مدير مجلة «الكلية» لما بذله من جهد في سبيل نشر تلك الفصول

أما مدير «المطبعة الادبية» في بيروت وسائر الافاضل الذين يشتغلون معه فلهم شكري واعجابي فقد أجهدوا انفسهم في اعادة طبع المسودات بعد وقوفي عليها وتصحيحها المرة بعد المرة .

على اني اعتذر للقراء لما وقع من غلطات كان يجب ان لا اتمم واعتمد على حكمتهم في تصحيحها الا ان عدد هذه الغلطات قليل جداً في رسالة طويلة كتبت بخط رديء غير واضح

وآمل من القراء الكرام ان يتفضلوا علي بما يخطر على بالهم من ملاحظات او مراجع لم يصل اليها علمي واكون شاكراً للذي يدلني على خطأ في حكمي او نقص في شواهدي وأرجو ممن لهم رغبة في هذا الموضوع ان يجودوا علي بما عندهم من معلومات او ما يقع تحت يدهم من مراجع لم اطلع عليها

القدس : ادارة المعارف

في ٢٢ آب ١٩٣١ عبد اللطيف الطيباوي